

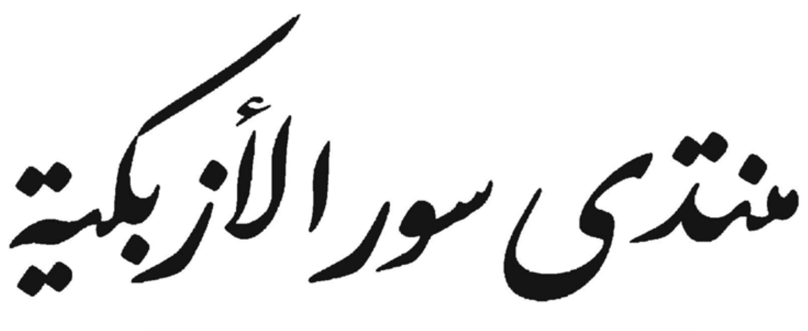
في المصادر العربية

Ἕρμης

Hermes

د. ماجد مصطفى الصعيدي

دارة الكرز


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET



هرمس

في المصادر العربية

Ἕρμης

Hermes

د. ماجد مصطفى الصعيدي

دارة الكرز

للنشــر والتــوزيع

Email:darkaraz@yahoo.com

١٧ ش منشية البكري- مصر الجديدة

تليفون وفاكس: ٠٢/٤٥٥١٣٠٤

الكتاب: هرمس في المصادر العربية

المؤلــف: ماجد مصطفى الصعيدي

الناشــر: دارة الكرز للنشر والتوزيع.

الطبعة الأولى

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٤٠٤١

الترقيم الدولي: 977-6156-57-6

طبع في القاهرة

مقدمة

يتناول هذا الكتاب شخصية "هرمس" بما لها من حضور بارز في تراثنا العربي العلمي والفلسفي، بل والأدبي أيضًا، وما دار حول حقيقة هذه الشخصية من بحوث ودراسات في كتابات المؤلفين المسلمين، وكيف ردّوها إلى أصلين قديمين يعود أولهما إلى مصر الفرعونية، ويعود الثاني إلى بلاد ما بين النهرين.

كما يتناول النصوص المنسوبة إلى "هرمس" في تراثنا العربي، وهي نصوص كثيرة صيغت بلسان عربي مبين، وبعضها ما زال مخطوطًا لم يُنشَرْ بعدُ، وكيف استقبلها النقاد والفلاسفة العرب والمسلمون، وكيف كان موقفهم منها، وتأويلهم لها، كُلٌّ حسب اتجاهه العقلي والتيار الفكري الذي ينتمي إليه، في إطار الثقافة العربية الإسلامية. ولابد لقارئ هذه النصوص أن يندهش للتعدد الهائل في تيارات الفكر العربي القديم، والتنوع الخصب الذي انطوت عليه الرؤية الكونية للثقافة العربية في تجربتها الحضارية الغنية - بعناصرها الأربعة: الدين، والعلم، والفن، والفلسفة - بما يؤكد أصالتها وتميُّزها بين ثقافات العالم.

ودراستنا لهذه النصوص ليست مجرد رصد وتأريخ للماضي، بل استشراف لأفق مستقبلي تؤدي فيه ثقافتنا ومجتمعاتنا العربية دورها الفاعل في التاريخ الحضاري للإنسان، هذا الكائن الذي

رفعت الثقافة العربية القديمة من شأنه حتى جعلته مركزا للكون، وأنزلته مكانا يعلو فيه على كل الكائنات الأخرى، بل رأت هذه الثقافة في الكائن البشري كونا مصغّرا يحتوي على كل مكونات الكون الكبير:

وتحسبُ أنك جِرْمٌ صغيرٌ   وفيك انطوى العالم الأكبرُ

وكان لا بد أن نتوقف عند "مشكلة هرمس والهرمسية" في فكرنا العربي الحديث من خلال دراستين بالغتَي الأهمية لاثنين من مفكرينا هما: المفكر المصري عبد الرحمن بدوي (ت ٢٠٠٢)، والمفكر المغربي محمد عابد الجابري.

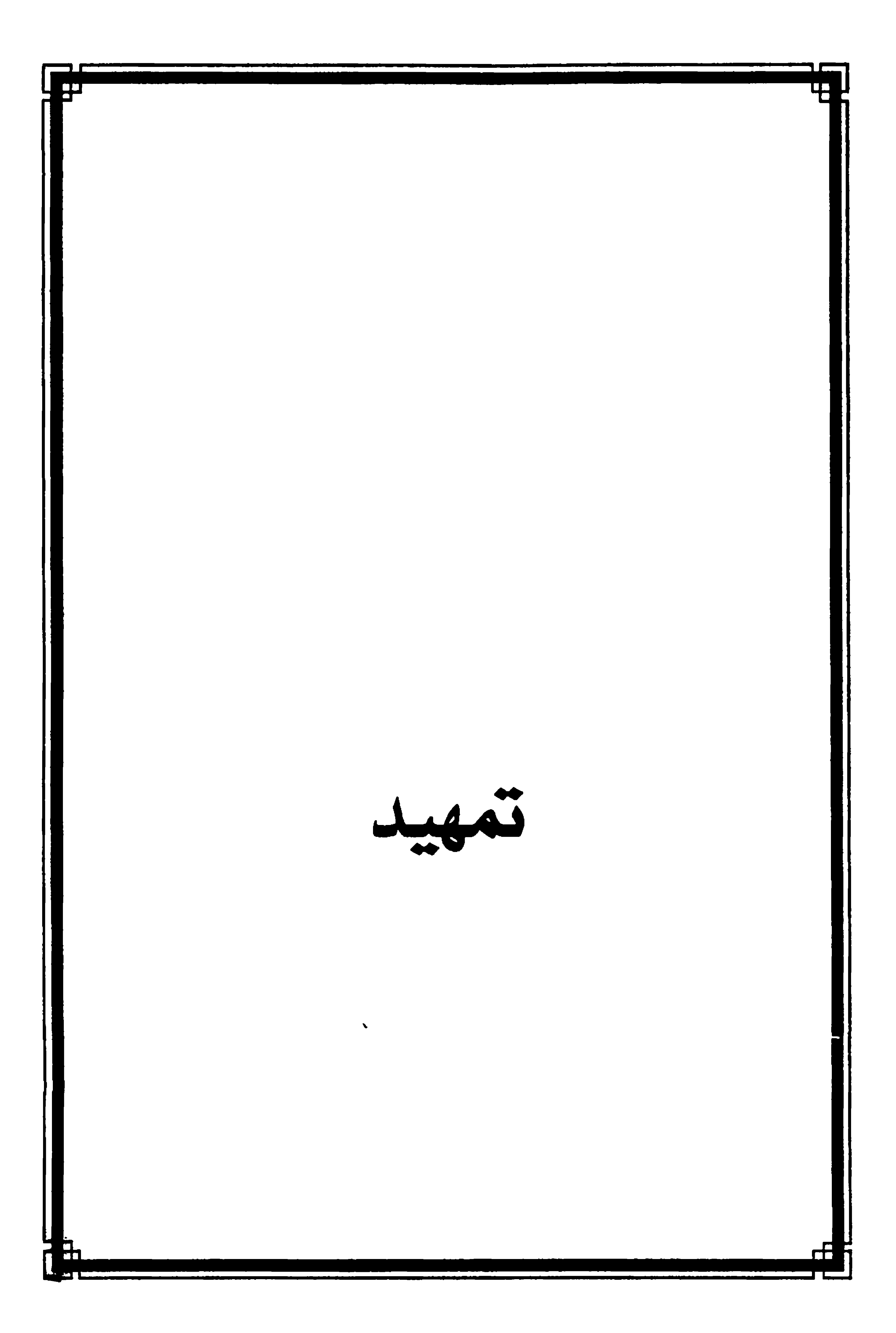
وأخيرًا نعرض لصورة هرمس في الشعر العربي، وكيف وظفها شعراء العربية في نصوصهم الشعرية، وهي نصوص تنتمي في غالبيتها إلى الشعر الفلسفي.

وبعد، فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب "هرمس في المصادر العربية"، بعد طبعته الأولى التي صدرت قبل ثلاث سنوات (٢٠٠٤). وقد أضفت إليه بعض الزيادات والتعديلات التي تؤكد فكرته الأولى وتزيدها جلاء.

والله الموفق أولاً وآخرًا

د. ماجد مصطفى

يناير ٢٠٠٧



تمهيد

(١)

هرمس حكيم مصري كثرت حوله الكتابات والحكايات في مؤلفات العرب والمسلمين. وذكر له ابن النديم في كتاب "الفهرست" عددًا من المؤلفات التي تُرجِمَتْ إلى العربية في العلوم المختلفة. وهناك روايات لدى المؤرخين المسلمين تقول إنه أخنوخ المذكور في التوراة، وبعضها يقول إنه النبي إدريس عليه السلام. كما نجد في المراجع العربية عددًا من الهرامسة وليس "هرمس" واحدًا . وبفحص كتابات المؤلفين العرب والمسلمين نجد ثلاثة هرامسة:

هرمس الأول: مصري عاش قبل الطوفان.

هرمس الثاني: كلداني بابلي.

هرمس الثالث: مصري عاش بعد الطوفان وهو المنسوب إليه عدة كتب في أحكام النجوم والكيمياء والسحر.

لكن قبل ذلك، وفي القرن الثالث قبل الميلاد فإن هرمس المثلث العظمة (تريس ماجستوس) HERMES TRISMEGISTOS أو المثلث العظمات أو المعظم ثلاثًا كان

"يتمتع بمكانة خاصة عند اليونان المتمصرين بوصفه بديلاً لإله العلوم عند المصريين"[1].

ويذكر جورج سارتون أن هرمس كان إلهًا للعلوم الخفية، وكان مرادفًا للإله المصري توت، ويسمى عطارد Mercury عند الرومان. ولفظ "hermetic" يشير إلى العلم المستور، ويشير أيضًا إلى المغلق المحكم. كما كانت صناعة الكيمياء تسمى الفن المحكم الانغلاق، وكانوا يتحدثون أيضًا عن الطب المحكم الانغلاق.

وحتى القرن الثالث قبل الميلاد فإن العناصر الفنية في التنجيم وتفاصيل عبادة النجوم، كان مصدرها بابل ومصر. وكان أهم الكواكب التي يُعتمد عليها في تفسير القَدَر هي الكواكب السبعة - ومنها: عطارد أو هرمس - وقد عُمِلَتْ موافقات دقيقة بين الأحداث الإنسانية من جهة وبين الحوادث النجومية وأحوال الكواكب من جهة أخرى، أو بين الكون الكبير والكون الصغير[2].

---

(١) جورج سارتون: تاريخ العلم- دار المعارف- القاهرة١٩٩١- ٤: ٢٠١.
وراجع أيضًا: The Encyclopedia of Religion,volume 6, New York, 1987, p.287. Encyclopédie de L'islam, Tome III, Paris, 1971, pp.479 – 481.

(٢) جورج سارتون: مرجع سابق - ٤: ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨.

ويبحث مارتن برنال في صفحات مطولة من كتابه "أثينة السوداء": الهرمسية وأصولها التي ترجع إلى مصر وبابل، وانتشارها في العالم الهيلليني ثم استمرارها في العصور الوسطى وحتى العصر الحديث؛ ويقول برنال:

"أما في الإسلام فقد تم تشخيص هرمس المثلث العظمة - طبقًا لنظرية يوهميروس - وتوحَّد مع النبي إدريس الذي ظهر في القرآن. وقد كان إدريس يعامل بشكل تقليدي على أنه أبٌ لكل الفلاسفة، وهو الذي أوقفت عليه الحكمة ثلاثًا. وفي أجزاء أخرى من التراث الإسلامي كان يُنظر له على أنه ثلاثة حكماء، الأول ظهر قبل الطوفان وعاش في مصر، أما الاثنان الآخران فظهرا بعد ذلك، وكان أحدهما من بابل، أما الثاني فكان من مصر مرة أخرى. كما عومل إدريس على أنه رمز للثقافة والحضارة، فهو الذي اخترع كل العلوم والفنون وبخاصة الفلك والتنجيم والطب والسحر. وفوق ذلك فبالرغم من الفرضية

المقنعة والقائلة بأن تأثير إدريس المصري في مرحلة الإسلام المبكر كان واضحًا في هذه المناطق فإنه وجدت فلسفات إسلامية هرمسية لكنها لم تُدرَس بعناية كما يجب، ويعود هذا بلا شك إلى عدم إمكانية التعامل مع النصوص"(1).

وقد عرف العرب علوم اليونان – وكانوا يسمونها: "علوم الأوائل" ـ عن طريق الترجمة من اليونانية إلى العربية مباشرةً، وفي أحيان كثيرة عن طريق لغة وسيطة هي السريانية. وكانت هناك مراكز لدراسة التراث اليوناني عندما فتح العرب بلاد المشرق، في بعض المدن، منها: الرها، ونصيبين، وجنديسابور، وحران.

ولمدينة حرّان، وهي قريبة من الرها، مكانة خاصة. ففيها، ولا سيما بعد أن أخذت تزدهر من جديد منذ الفتح العربي، اتصلت وثنية الساميين القديمة بالأبحاث الرياضية والفلكية، وبنظريات المذهبين الفيثاغوري الجديد والأفلاطونية المحدثة. وكان الحرّانيون

---

(1) مارتن برنال: أثينة السوداء، الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، الجزء الأول: تلفيق بلاد الإغريق ١٧٨٥ – ١٩٨٥، ترجمة: لطفي عبد الوهاب، وآخرين، تحرير ومراجعة: أحمد عثمان – المشروع القومي للترجمة ١٦، المجلس الأعلى للثقافة – القاهرة ١٩٩٧: ٢٧٠، ٢٧١.

- أو الصابئة وهذه هي التسمية التي أُطلقت عليهم في القرنين التاسع والعاشر الميلادي (الثالث والرابع الهجري) - يَنْسبون حكمتهم الصوفية إلى هرمس المثلث الحكمة[1].

وكان بعض العرب ينسبون فلسفة أنباذوقليس وفيثاغورس وغيرهما إلى "هرمس"، أو إلى غيره من حكماء الشرق[2]. كما أخذ أهل الفِرَق والصوفية أجزاء كثيرة من الحكمة الفيثاغورية والأفلاطونية، واعتبروا الفيلسوف اليوناني أرسطو أستاذا لهم؛ واعتمدوا على كتب منحولة نُسبت إليه، وكانوا يعتقدون أن أرسطو من تلاميذ أغاثاذيمون و"هرمس"[3].

(٢)

وشخصية "هرمس" تظهر في الثقافة العربية منذ وقت مبكر مع بداية حركة الترجمة من اليونانية والسريانية. ففي كتاب "الفهرست" لابن النديم نجد اسم هرمس يتردد كثيرًا في مَواضع

---

(١) دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام - ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٣٨: ١٧، ١٨.

(٢) دي بور: مرجع سابق: ٢٧.

(٣) دي بور: مرجع سابق: ٢٣٣.

مختلفة منه كمؤلف لعدد من الكتب اليونانية المنقولة إلى العربية. ثم يتوالى ذكر اسم هرمس في المؤلفات العربية، وتتبلور ملامح واضحة لصورة هذه الشخصية التاريخية التي كان لها – حسب التصور العربي – دور بارز ومؤسِّس لأركان الحضارة الإنسانية، في الدين والعلم والفن والفلسفة.

وكانت حركة الترجمة ـ وقد بدأت في نهاية القرن الأول الهجري ـ تتجه نحو مجالات معرفية بعينها اهتم بها المجتمع العربي في ذلك الوقت وانشغل بحل مشكلاتها؛ كالطب، والكيمياء، والفلك، والرياضيات والهندسة، والفلسفة والمنطق، والنصوص الدينية.

وإذا كان اسم "هرمس" يبدو غريبًا عن البيئة الثقافية العربية فإن المصادر العربية كلها أجمعت على أن هذه الشخصية تنتمي إلى المنطقة العربية وأن المسرح الذي ظهرت فيه أعمالها الجليلة والخطيرة في تاريخ الحضارة هو مصر والعراق؛ فيذكر المعجميون العرب أن "هرمس": اسم عَلَم سرياني. هكذا جاء في لسان العرب[1].

---

(١) ابن منظور: لسان العرب: هرمس.

وجاء في تاج العروس من جواهر القاموس:

"هِـرْمِس كزِبْـرِج: اسـم علَـم سريـاني. وهِرْمِسُ الهَرَامِـسَة: يَعْنُـونَ بِـه سـيِّدَنا إدريـسَ عليه السلام، وهو النبي المُثَلَّث. وأبو هَرْمِيس: قرية بالجيزة وهي المعروفة الآن ببهرمس؛ قـال ابن عبد الحكم رحمه الله: لما مات بَيْصَر بن حـام دُفِنَ في موضـع أَبِي هِـرْمِيس، قـال: فهـي أوّل مقبرة قُبِرَ فيها بأرض مصر. قاله ياقوت. قلت: والمعروفة ببهـرمس مـن القـرى بـأرض مـصر ثلاثة غيرها: منها واحدة في الدقهليـة وتعـرف بمنية النصارى، والثانية في الأبوانية، والثالثة في الغربية. وأصل كـل ذلـك أبـو هـرميس فلـذا ذكرتها هنا. وهُرْمُس بالضم: اسم ذي القـرنين على أحد الأقوال التي نقلها ابن هشام؛ كـذا في الروض للسهيلي"[1].

كما يدأب المؤرخون العرب على القول بأن اللغة السريانية هي أقدم اللغات، وأنها لغة آدم أبي البشر؛ فهـا هـو ذا المـؤرخ صـاعد

---

(١) مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس: هرمس.

الأندلسي يقول في مقدمة كتابه "طبقات الأمم" وهو بصدد الحديث عن الأمم القديمة: إن اللسان السرياني "هو اللسان القديم لسان آدم عليه السلام وإدريس ونوح وإبراهيم ولوط عليهم السلام وغيرهم. ثم تفرعت اللغة العبرانية والعربية من اللغة السريانية"[1].

ويرى عبد المجيد عابدين أن هذا الرأي الذي شاع عند المؤرخين العرب "يشبه كلام السريان عن لغتهم"[2].

لكن العقاد في كتابه "إبراهيم أبو الأنبياء" يفسّر هذه المسألة بأن اللغة العربية الأولى: لغة القبائل التي سكنت شبه الجزيرة العربية، من اليمن إلى الشام إلى العراق وتخوم فلسطين وسيناء: "عُرِفَتْ باللغة السريانية ـ خطأً ـ نجم من إطلاق اليونان هذا

(١) القاضي صاعد الأندلسي: طبقات الأمم: ١٤. وراجع أيضًا: أخبار عبيد بن شرية الجرهمي في أخبار اليمن وأشعارها وأنسابها – حيدرآباد بالهند ١٣٤٧ هـ: ٣١٦، وابن النديم: الفهرست: ٢٢ في الكلام على القلم السرياني.

(٢) عبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ١٩٨٩: ٣٣

الاسم عليها، وسبب ذلك أنهم كانوا يسمُّون الشام الشمالية أشورية أو سورية، فشاعت تسمية العربية بالسريانية"[1].

وعلى ذلك يكون اسم "هرمس" راجعًا في أصوله إلى مصدر أقدم من الأصل اليوناني لاسم رسول الآلهة الذي ظهر في الأساطير اليونانية ابنًا لزيوس ومايا[2].

وقد ربطت الثقافة العربية الإسلامية ـ سعيًا منها نحو بناء رؤية فلسفية شاملة تفسِّر الظواهر الكونية ببعديها الفيزيقي والميتافيزيقي، واتساقًا مع وجهة النظر العربية الإسلامية - بين شخصية هرمس وشخصية النبي إدريس عليه السلام الذي جاء ذكره في القرآن الكريم. وكذلك بين شخصية هرمس وشخصية أخنوخ المذكور في التوراة، دون إغفال الملامح اليونانية لشخصية

---

(١) عباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ١٩٩٣ : ٤٦.

(٢) Hermes راجع: منير البعلبكي: المورد – دار العلم للملايين – بيروت ١٩٨٦ :، وجبور عبد النور، سهيل إدريس: المنهل – دار الآداب، دار العلم للملايين - ط٢ - بيروت ١٩٧٢ : Hermès ، وفيليب حتي: تاريخ العرب (مطول) – دار الكشاف للنشر والطباعة و التوزيع - بيروت ١٩٥٨ - ١: ١٧٨.

هرمس التي تم نقلها من الثقافة اليونانية. لذلك سوف نجد شخصية هرمس ـ حسب المصادر العربية ـ متعددة الأبعاد. ولكن كيف تم ذلك؟

هذا ما سوف نَتَتَبَّعُه في الصفحات التالية حسبما جاء في المصادر العربية.



شخصية هرمس

١ - الفهرست

لابن النديم

في القرن الرابع الهجري كانت الحضارة العربية الإسلامية قد بلغت مرحلة متقدمة من النمو والتطور والوعي بالذات، دعتها إلى رصد منجزاتها في مجالات المعرفة المختلفة؛ فوضع محمد بن إسحاق النديم المعروف بابن أبي يعقوب الوراق (ت حوالي ٣٨٠ هـ = ٩٩٠م) كتابه البالغ الأهمية "الفهرست" ليرصد فيه - على حد قوله - "كتب جميع الأمم، من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم، وأخبار مصنفيها، وطبقات مؤلفيها، وأنسابهم، وتاريخ مواليدهم، ومبلغ أعمارهم، وأوقات وفاتهم، وأماكن بلدانهم، ومناقبهم، منذ ابتداء كل علم اختُرِعَ إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة"[١].

وهذا المنهج الذي اتبعه ابن النديم في كتابه يكشف عن رؤية مضمونها أن الحضارة الإنسانية حضارة واحدة متصلة الحلقات؛ لذلك لم يكن كتاب "الفهرست" مجرد بيبليوجرافيا لأسماء الكتب وأسماء مؤلفيها فحسب، بل محاولة جادة لتأصيل كل علم وكل

---

(١) ابن النديم: الفهرست - دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٦ : ٧.

مجال معرفي ظهر في الحضارة العربية الإسلامية، والبحث عن جذوره في التجارب الحضارية السابقة، من خلال رصد المؤلفات التي ظهرت في عصور سابقة، وبلغات أخرى، ثم تُرجمت إلى العربية.

يحتوي كتاب الفهرست على عشر مقالات، وكل مقالة مقسمة إلى عدد من الفنون؛ فالمقالة السابعة تحتوي على: "أخبار الفلاسفة الطبيعيين والمنطقيين وأسماء كتبهم ونقولها وشروحها والموجود منها وما ذُكر ولم يوجد وما وُجِد ثم عُدِم". وقد قسمها ابن النديم إلى ثلاثة فنون.

ويأتي ذكر هرمس في مقالتين من كتاب ابن النديم: المقالة التي يتحدث فيها عن علم الفلك والمشتغلين به من الفلكيين، والمقالة التي يذكر فيها علم الكيمياء والمشتغلين به من الكيميائيين.

ففي الفن الثاني من المقالة السابعة - وهو : "في أخبار العلماء وأسماء ما صنّفوه من الكتب ويحتوي على أخبار أصحاب التعاليم المهندسين والأرثماطيقيين والموسيقيين والحسّاب والمنجمين وصنّاع الآلات وأصحاب الحيل والحركات"(1) - وبعد أن رصد كتب "إقليدس"، و"أرشميدس"، و"أبسقلادوس"،

---

(1) ابن النديم: الفهرست: ٤٢٧.

و"أبلونيوس"، ذكر ابن النديم كتب "هرمس" في الفلك وهي خمسة كتب، فقال:

"وله من الكتب في النجوم: كتاب عرض مفتاح النجوم الأول. كتاب طول مفتاح النجوم الثاني. كتاب تسيير الكواكب. كتاب قسمة تحويل سني المواليد على درجة درجة. كتاب المكتوم في أسرار النجوم، ويسمى قضيب الذهب"[1].

وفي صدر المقالة العاشرة - "وتحتوي على أخبار الكيميائيين والصنعويين من الفلاسفة القدماء والمحدثين" - يورد ابن النديم مقدمة عن تاريخ علم الكيمياء يعقبها الحديث عن هرمس باعتباره أقدم الكيميائيين؛ يقول ابن النديم:

"زعم أهل صناعة الكيمياء وهي صنعة الذهب والفضة من غير معادنها، أن أول من تكلم على علم الصنعة هرمس الحكيم البابلي، المنتقل إلى مصر عند افتراق الناس عن بابل،

---

(١) ابن النديم: الفهرست: ٤٢٩.

وأنه ملك مصر وكان حكيمًا فيلسوفًا، وأن الصنعة صحَّتْ له، وله في ذلك عدة كتب، وأنه نظر في خواص الأشياء وروحانياتها، وصحَّ له ببحثه ونظره علم صناعة الكيمياء، ووقف على عمل الطِّلَّسْمات، وله في ذلك كتب كثيرة. وقد قيل إن ذلك قبل هرمس بألوف سنين، على مذهب أصحاب القدم"[1].

بعد ذلك مباشرةً يورد ابن النديم تحت عنوان "ذكر هرمس البابلي":

"قد اختُلِفَ في أمره، فقيل إنه كان أحد السبعة السدنة الذين رُتِّبُوا لحفظ البيوت السبعة، وإنه كان إليه بيت عطارد، وباسمه يسمى، فإن عطارد باللغة الكلدانية هرمس. وقيل إنه انتقل إلى أرض مصر بأسباب، وإنه ملكها، وكان له أولاد عدة؛ منهم: طاط، وصا، وأشمن، وإثريب، وقفط، وإنه كان حكيم

---

(١) ابن النديم: الفهرست: ٥٤١.

زمانه. ولما توفي دفن في البناء الذي يعرف بمدينة مصر بأبي هرمس، وتعرفه العامة بالهرمين، فإن أحدها قبره والآخر قبر زوجته، وقيل قبر ابنه الذي خلفه بعد موته"[1].

وعندما يورد ابن النديم أسماء الفلاسفة الذين تكلموا في الصنعة (الكيمياء) يذكر أن أولهم هرمس، ثم أغاذيمون[2]. ويقول:

"ولهرمس كتب في النجوم والنيرنجات والروحانيات"[3].

ثم يذكر تحت عنوان "كتب هرمس في الصنعة" ثلاثة عشر كتابًا لهرمس في الكيمياء هي:

"كتاب هرمس إلى ابنه في الصنعة. كتاب الذهب السائل. كتاب إلى طاط في الصنعة. كتاب عمل العنقود. كتاب الأسرار. كتاب

---

(١) ابن النديم: الفهرست: ٥٤٢.

(٢) ابن النديم: الفهرست: ٥٤٣.

(٣) ابن النديم: الفهرست: ٤٥٣.

الهـــاديطوس. كتـــاب الملاطـــيس. كتـــاب الإســـطماخس. كتـــاب الـــسلماطس. كتـــاب أرمينس تلميذ هرمس. كتاب نـيلادس تلميـذ هــرمس في رأي هــرمس. كتــاب الأدخيقــي. كتاب دمانوس لهرمس"[1].

من النصوص السابقة يمكن استخلاص صورة ذات ملامح واضحة لهرمس كما أوردها ابن النديم في كتاب الفهرست، فهو قد مارس نشاطًا حضاريًا شاملاً جعل منه شخصية غنية ذات أبعاد متعددة؛ فهناك:

أولاً: هرمس البابلي الذي انتقل إلى مصر وسكنها وصار حاكمًا لها ودفن في الهرم.

ثانيًا: هرمس رجل الدين سادن أحد البيوت السبعة.

ثالثًا: هرمس الحكيم الفيلسوف.

رابعًا: هرمس الفلكي، له خمسة كتب في الفلك وعلم النجوم.

خامسًا: هرمس الكيميائي، له ثلاثة عشر كتابًا في الكيمياء.

---

(١) ابن النديم: الفهرست: ٥٤٣.

كما يحدد ابن النديم زمن انتقال هرمس البابلي إلى مصر بحادثة برج بابل وتبلبل الألسنة، التي أشار إليها بقوله "عند افتراق الناس عن بابل"، وهي الحادثة التي جاء ذكرها في سفر التكوين[1]:

"وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقا أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض هلمَّ نصنع لبْنا ونشويه شيًّا، فكان لهم اللبْن مكان الحجر وكان لهم الحُمَر مكان الطين. وقالوا هلمَّ نبنِ لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء، ونصنع لأنفسنا اسمًا لئلاّ نتبدد على وجه كل الأرض. فنزَلَ الربُّ لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما. وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل، والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع

---

(١) سفر التكوين: الأصحاح الحادي عشر: ١ – ٩.

بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب مـن هنـاك
على وجه كل الأرض، فكفّوا عن بنيان المدينـة.
لذلك دعي اسمها بابل، لأن الرب هناك بلبـل
لسان كل الأرض، ومن هناك بددهم الرب على
وجه كل الأرض".

ونصوص ابن النديم تشير بوضوح إلى الصلة الحضارية القديمة بين مصر وبلاد ما بين النهرين والتي تمثلت في انتقال هرمس من بابل إلى مصر بعد الطوفان. فإذا كانت أصول هرمس ترجع إلى بلاد ما بين النهرين فإن أعماله الحضارية كلها تمت في مصر عندما انتقل إليها وأسس المدن التي سميت بأسماء أبنائه، ونظَّم التجمعات الحضارية، وأنتج تراثًا معرفيًا هو – حسب نصوص ابن النديم – أقدم ما عرفته الحضارة الإنسانية.

لكن الملمح البارز في شخصية هرمس عند ابن النديم هو الجانب العلمي؛ فهو فلكي، وكيميائي، له مؤلفات كثيرة في هذين العلمين تمت ترجمتها إلى العربية.

٢ - طبقات الأمم

لصاعد الأندلسي

في القرن الخامس الهجري وضع القاضي أبوالقاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت ٤٦٢ هـ = ١٠٧٠م) - وهو مفكر وتلميذ للفيلسوف الأندلسي ابن حزم القرطبي (ت ٤٥٦ هـ = ١٠٦٣م) - كتابًا فريدًا بالغ الأهمية بعنوان "طبقات الأمم" وموضوعه تاريخ العلم في العالم. وقد ورد فيه اسم "هرمس" مرات عديدة نحب أن نتوقف عندها لأنها تكشف عن المزيد من ملامح شخصية هرمس:

١. في حديثه عن "العلم عند الكلدان" - وهي الأمة الثالثة بعد الهند والفرس ممن اشتغل بالعلم - يقول صاعد:

> **"وأشهر علمائهم عندنا وأجلهم هو هرمس البابلي، وكان في عهد سقراط الفيلسوف اليوناني، وذكر عنه أبو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخي في كتاب "الألوف" أنه هو الذي صحح كثيرًا من كتب الأوائل في علوم النجوم وغيرها من أصناف الفلسفة مما**

كان فسد، وأنه صنف كتبًا كثيرة في علوم شتى، قال أبو معشر: والهرامس جماعة شتى منهم الهرمس الذي كان قبل الطوفان، الذي يزعم العبرانيون أنه خنوخ وهو إدريس عليه السلام، وكان بعد الطوفان منهم عدة ذوو معرفة وتمييز، وكان المقدم منهم اثنان: أحدهما البابلي الذي ذكرناه، والآخر تلميذ فيثاغورس الحكيم من سكان مصر. قال صاعد: وقد وصل إلينا من مذهب هرمس البابلي ودل على تقدمه في العلم، من ذلك مذهبه في مطارح شعاعات الكواكب، ومذهبه في تسوية بيوت الفلك، ومن ذلك كتبه في أحكام النجوم مثل كتاب الطول وكتاب العرض وكتاب قضيب الذهب"[1].

٢. وتحت عنوان "العلوم في أهل مصر" - وهي الأمة السادسة بعد الهند والفرس والكلدان واليونان والروم ممن اشتغل بالعلم - يقول صاعد:

---

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم - تحقيق حسين مؤنس - دار المعارف - القاهرة ١٩٩٨: ٢٩ - ٣٠.

"ذكر جماعة من العلماء أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان، إنما صدرت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى، وهو الذي يسميه العبرانيون خنوخ بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام، وهو إدريس النبي عليه السلام، وقالوا إنه أول من تكلم في الجواهر العلوية والحركات النجومية، وأول من بنى الهياكل ومجّد الله تعالى فيها، وأول من نظر في علم الطب، وألف لأهل زمانه قصائد موزونة في الأشياء الأرضية والسماوية، وقالوا إنه أول من أنذر بالطوفان ورأى أن آفة سماوية تلحق الأرض من الماء أو النار فخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع، فبنى الأهرام والبرابي في صعيد مصر الأعلى، وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم فيها صفات العلوم حرصًا منه على تخليدها لمن بعده وخيفة أن يذهب اسمها من العالم"[1].

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم ٥٣.

٣. ثم ينتقل صاعد إلى الحديث عن علماء مصر بعد الطوفان فيقول:

"ومن قدماء العلماء بمصر هرمس الثاني، وكان فيلسوفًا جوالاً في البلاد، طوّافًا على المدائن، عالمًا بنُصُب أهلها وطبائع أهلها، وله كتاب جليل في صناعة الكيمياء، وكتاب في الحيوانات ذوات السموم"[1].

وكما هو ملاحظ، ينقل القاضي صاعد عن أبي معشر الفلكي حديثه عن الهرامسة الثلاثة، فهناك هرمس الأول المصري الذي كان قبل الطوفان وهو إدريس النبي، وهرمس الثاني المصري وكان بعد الطوفان، وهرمس البابلي. لكن ملامح الهرمسين: المصري الثاني، والبابلي متداخلة؛ فكلاهما شخصية علمية، وكلاهما تلميذ لشخصية يونانية، فالبابلي تلميذ لسقراط!! والمصري تلميذ لفيثاغورس!!.

---

(١) صاعد الأندلسي: طبقات الأمم: ٥٤.

٣ - الرسالة المصرية

لأبي الصلت الداني

أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز الداني (ت ٥٢٨ هـ = ١١٣٥م) طبيب ورياضي وفيلسوف أندلسي زار مصر في النصف الثاني من القرن الخامس، ودرس البيئة المصرية وكتب رسالته المشهورة عن مصر بعنوان "الرسالة المصرية".

وقد ورد اسم هرمس في الرسالة المصرية في موضعين:

١. ففي حديثه عن تاريخ مصر وعلمائها في العصور القديمة، يقول:

"ومن الناس من زعم أن هرمس الأول، المدعو بالمثلَّث بالنبوة والملك والحكمة، وهو الذي يسميه العبرانيون خنوخ بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام - وهو إدريس عليه السلام - استدل من أحوال الكواكب على كون الطوفان يعم الأرض، فأكثر من بنيان الأهرام، وإيداعها

الأموال وصحائف العلوم، وما يشفق عليه من الذهاب والدروس، حفظًا لها، واحتياطًا عليها"[1].

٢. والموضع الثاني في أثناء حديثه عن علماء مصر بعد الطوفان:

"فيقال إن من قدماء أهل العلم بها هرمس الثالث، وكان فيلسوفًا جوّالاً في البلاد، طوّافًا في المدائن، عالمًا بنصبتها، وطوالعها وطبائع أهلها، وله تصانيف جليلة مفيدة في فنون من الحكمة"[2].

وهكذا ذكر أبو الصلت هِرْمِسَيْن: الأول والثالث، وأمسك عن ذكر هرمس الثاني (البابلي)؛ لأنه يتحدث عن شخصيات مصرية. فهرمس الأول – وهو إدريس عليه السلام – كان قبل

---

(١) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني: الرسالة المصرية - نوادر المخطوطات، المجموعة الأولى - تحقيق عبدالسلام هارون - الطبعة الثانية - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢م: ٢٧.

(٢) أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني: الرسالة المصرية: ٢٩.

الطوفان، وهرمس الثالث كان في مصر بعد الطوفان، وهو شخصية علمية "من قدماء أهل العلم"، وهو المنسوب إليه المؤلفات الفلكية والكيميائية التي تم نقلها إلى العربية ورصدها ابن النديم في الفهرست كما مر بنا.

٤ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء

لابن أبي أصيبعة

موفق الدين أبوالعباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة (ت٦٦٨ هـ = ١٢٦٨م) صاحب كتاب "عيون الأنباء في طبقات الأطباء" الذي وضعه في دمشق سنة ٦٤٣ هـ يتناول في الباب الثاني منه - وهو بعنوان: "طبقات الأطباء الذين ظهرت لهم أجزاء من صناعة الطب وكانوا المبتدئين بها" ـ أقدم من اشتغل بصناعة الطب. وقد بدأ هذا الفصل بقوله:

"قد اتفق كثير من قدماء الفلاسفة والمتطببين على أن اسقليبيوس، كما أشرنا إليه أولاً، هو أول من ذُكِر من الأطباء وأول من تكلم في شيء من الطب على طريق التجربة وكان يونانيًا"[1].

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء – شرح وتحقيق نزار رضا – منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥م: ٢٩.

وفي بحث ابن أبي أصيبعة عمن أخذ عنه اسقليبيوس علم الطب، يأتي ذكر "هرمس"، فيقول نقلاً عن أبي معشر الفلكي:

"أما أبو معشر البلخي المنجم فإنه ذكر في كتاب الألوف، أن اسقليبيوس هذا لم يكن بالمتألّه الأول في صناعة الطب ولا بالمبتدئ بها، بل إنه عن غيره أخذ، وعلى نهج من سبقه سلك. وذكر أنه كان تلميذ هرمس المصري. وقال إن الهرامسة ثلاثة:

أما (هرمس الأول) وهو المثلث بالنعم فإنه كان قبل الطوفان، ومعنى هرمس لقب كما يقال قيصر وكسرى. وتسميه الفرس في سيرها اللهجد، وتفسيره ذو عدل. وهو الذي تذكر الحرانية نبوته؛ وتذكر الفرس أن جده كيومرث وهو آدم. ويذكر العبرانيون أنه أخنوخ وهو بالعربية إدريس. قال أبو معشر: هو أول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية، وأن جده كيومرث وهو آدم علمه ساعات الليل والنهار، وهو أول من بنى

الهياكل ومجد الله فيها؛ وأول من نظر في الطب وتكلم فيه. وأنه ألّف لأهل زمانه كتبًا كثيرة بأشعار موزونة وقواف معلومة بلغة أهل زمانه في معرفة الأشياء الأرضية والعلوية. وهو أول من أنذر بالطوفان، ورأى أن آفة سماوية يلحق الأرض من الماء والنار، وكان مسكنه صعيد مصر، تخير ذلك فبنى هناك الأهرام ومدائن التراب، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي وهو الجبل المعروف بالبرابر بأخميم وصوّر فيها جميع الصناعات وصُنّاعها نقشًا وصوّر جميع آلات الصُّناع، وأشار إلى صفات العلوم لمن بعده برسوم حرصًا منه على تخليد العلوم لمن بعده، وخيفة أن يذهب رسم ذلك من العالم. وثبت في الأثر المروي عن السلف: "إن إدريس أول من درس الكتب، ونظر في العلوم، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو أول من خاط الثياب ولبسها ورفعه الله مكانًا عليًا".

وأما (هرمس الثاني) فإنه من أهـل بابـل، سكن مدينة الكلدانيين وهي بابل، وكـان بعـد الطوفان في زمن نزيربال الذي هو أول من بنـى مدينة بابل بعد نمرود بن كوش. وكان بارعًا في علم الطب والفلسفة، وعارفًا بطبائع الأعـداد، وكان تلميذه فيثاغورس الأرثماطيقي. وهرمس هذا جدَّد من علم الطب والفلسفة وعِلْم العدد مـا كـان قـد درس بالطوفـان ببابـل، ومدينـة الكلـدانيين هـذه مدينـة الفلاسـفة مـن أهـل المشرق، وفلاسـفتهم أول مـن حـدَّد الحـدود، ورتَّب القوانين.

وأما (هرمس الثالث) فإنه سـكن مدينـة مصر وكان بعد الطوفان، وهو صاحب كتـاب (الحيوانـات ذوات الـسموم) وكـان طبيبًـا فيلـسوفًا وعالمًـا بطبـائع الأدويـة القتّالـة والحيوانـات المؤذيـة، وكـان جـوّالاً في الـبلاد طوَّافًا بها، عالمًا بنصبة المدائن وطبائعها وطبـائع أهلها. ولـه كـلام حـسن في صـناعة الكيميـاء

نفيس يتعلق منه إلى صناعات كثيرة، كالزجاج والخرز والغضار وما أشبه ذلك. وكان له تلميذ يُعرف باسقلييبوس، وكان مسكنه بأرض الشام"[1].

في هذا النص الطويل تتضح ملامح كل واحد من الهرامسة الثلاثة وتتميز شخصية كل منها عن الاثنتين الأخريين، في وضوح.

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ٣٢ – ٣٣.

٥ – إخبار العلماء بأخبار الحكماء

للقفطي

في القرن السابع الهجري وضع المؤرخ جمال الدين علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦ هـ) كتابًا بعنوان "إخبار العلماء بأخبار الحكماء"، يؤرخ فيه للفلسفة والفلاسفة منذ أقدم العصور حتى وقته. وقد اختار القفطي لكتابه شكلاً فنيًا عرفته الثقافة العربية منذ وقت مبكر جدًا وهو ما أصبح يُعرف بكتب الطبقات، أي الكتب التي تحتوي على تراجم الأشخاص، ومنها: طبقات الشعراء، وطبقات المحدِّثين، والمفسرين، والقُرَّاء، والفقهاء، والنحويين، واللغويين، والكُتَّاب، والأدباء، والصوفية، والأطباء، وغيرهم.

وقد جاء كتاب القفطي في شكل معجم للأشخاص، إذ رتب فيه الحكماء ترتيبًا أبجديًا من الهمزة إلى الياء، وجعل لكل حرف بابًا، وجعل البابين الأخيرين في "الكُنَى" و"الأبناء".

فبعد المقدمة القصيرة التي لم تتجاوز فقرة واحدة نجد أول ترجمة في باب الهمزة لـ"إدريس" النبي صلى الله عليه وسلم. وفي حرف الهاء نجد ترجمتين؛ الأولى لـ"هرمس الثاني"،وتليها ترجمة لـ"هرمس الثالث".

وبذلك يكون كتاب "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" للقفطي قد احتوى على ثلاثة نصوص خاصة بهرمس. وسوف نلاحظ فيما أورده القفطي تداخلاً واضحًا بين عدد من النصوص المنقولة من مصادر عربية بعضها نص عليه القفطي وأغفل بعضها الآخر؛ فقد نص على النقل من الشهرستاني (صاحب كتاب الملل والنحل)، ومن ابن جلجل (صاحب كتاب طبقات الأطباء والحكماء). كما نص على النقل من أبي معشر الفلكي لكنه ـ على نقيض ما فعل ابن أبي أصيبعة - لم يذكر اسم كتاب أبي معشر. وهذا يُرجّح القول بأن نقله عن أبي معشر لم يكن نقلاً مباشرًا وإنما عَبْر مرجع وسيط. كما سوف نجد أنه أكثر النقل من كتاب المبشر بن فاتك: "مختار الحكم ومحاسن الكلم"، دون ذكر المصدر. وكذلك "الرسالة المصرية" لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني. وأيضًا سوف نجد تطابقًا كاملاً في بعض الفقرات التي أوردها القفطي مع ما جاء عند صاعد الأندلسي في كتاب "طبقات الأمم".

كل ذلك جعل نصوص القفطي – في ترجماته الثلاث لإدريس، وهرمس الثاني، وهرمس الثالث – خالية تمامًا من الحس النقدي؛ مما أفقدها التجانس والانسجام المطلوبَيْن، على الرغم من

تدخُّلِه كثيرًا بالحذف والإضافة، وزيادة عبارات نفهم منها أنها للقفطي نفسه؛ وهذا ما يدعونا لفحص هذه النصوص الثلاثة:

١. [إدريس] النبي صلى الله عليه وسلم:

"قد ذكر أهل التواريخ والقصص وأهل التفسير من أخباره ما أنا في غنى من إعادته، وأنا ذاكر ما قاله الحكماء خاصة.

اختلف الحكماء في مولده ومنشأه، وعمن أخذ العلم قبل النبوة؛ فقالت فرقة: ولد بمصر، وسموه هرمس الهرامسة. ومولده بمنف. وقالوا: هو باليونانية أرميس وعُرِّبَ بهرمس، ومعنى أرميس عطارد.

وقال آخرون: اسمه باليونانية طرميس. وهو عند العبرانيين اسمه خنوخ، و عُرِّبَ أخنوخ. وسماه الله عز وجل في كتابه العربي المبين إدريس. وقال هؤلاء: إن معلمه اسمه ألغوثاذيمون، وقيل أغثاذيمون المصري. ولم يذكروا من كان هذا الرجل إلاّ أنهم قالوا: إنه

كان أحد الأنبياء اليونانيين والمصريين، وسموه أيضًا أورين الثاني، وإدريس عندهم أورين الثالث. وتفسير غوثاذيموس: السعيد الجد.

وقالوا: خرج هرمس من مصر، وجاب الأرض كلها، ثم عاد إليها ورفعه الله إليه بها وذلك بعد اثنين وثمانين سنة من عمره.

وقالت فرقة أخرى: إن إدريس ولد ببابل ونشأ بها، وإنه أخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم وهو جد جد أبيه، لأن إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث.

قال الشهرستاني: إن أغثاذيمون هو شيث ولما كبر إدريس آتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث، فأطاعه أقلهم وخالفهم جلهم، فنوى الرحلة عنهم، وأمر من أطاعه منهم بذلك فثقل عليهم الرحيل عن أوطانهم فقالوا له: وأين نجد إذا رحلنا مثل بابل؟ - وبابل بالسريانية:

النهر – وكأنهم عنوا بذلك دجلة والفرات. فقال: إذا هاجرنا لله رزقنا غيره. فخرج وخرجوا، وساروا إلى أن وافوا هذا الإقليم الذي سمي بابليون فرأوا النيل ورأوه واديًا خاليًا من ساكن، فوقف إدريس على النيل وسبَّح الله وقال لجماعته: بابليون. واختُلِف في تفسيره فقيل: نهر كبير، وقيل نهر كنهركم، وقيل: نهر مبارك. وقيل: إن يون في السريانية مثل أفعل التي للمبالغة في كلام العرب وكأن معناه نهر أكبر، فسمي الإقليم عند جميع الأمم بابليون، وسائر فرق الأمم على ذلك إلاّ العرب فإنهم يسمونه إقليم مصر نسبة إلى مصر بن حام النازل به بعد الطوفان، والله أعلم بكل ذلك.

وأقام إدريس ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله عز وجل. وتكلّم الناس في أيامه باثنين وسبعين لسانًا، وعلّمه الله عز وجل

منطقهم ليُعَلِّمَ كل فرقة منهم بلسانها. ورسم له تمدين المدن وجمع له طالبي العلم بكل مدينة فعرَّفهم السياسة المدنية، وقرر لهم قواعدها، فبنت كل فرقة من الأمم مدنًا في أرضها، وكانت عدَّةُ المدن التي نشأت في زمانه مائة مدينة وثماني وثمانين مدينة أصغرها الرها، وعلَّمهم العلوم.

وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم، فإن الله عز وجل أفهمه سرّ الفلك وتركيبه ونقطة اجتماع الكواكب فيه، وأفهمه عدد السنين والحساب ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها إلى ذلك. وأقام للأمم سُننًا في كل إقليم تليق كل سُنَّة بأهلها. وقسَّم الأرض أربعة أرباع، وجعل على كل ربع ملكًا يسوس أمر المعمور من ذلك الربع، وتقدّم إلى كل ملك بأن يلزم أهل كل رُبْع بشريعة سأذكر بعضها. وأسماء الأربعة الملوك الذين ملكوا:

الأول: إيلاوس، وتفسيره الرحيم. والثاني: أوس. والثالث: سقلبيوس. والرابع: أوس آمون، وقيل إيلاوس آمون، وقيل بسيلوخس وهو آمون الملك.

(ذكر بعض) ما سنّه لقومه المطيعين له:

دعا إلى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخالق وتخليص النفوس من العذاب في الآخرة بالعمل الصالح في الدنيا وحض على الزهد في الدنيا والعمل بالعدل وأمرهم بصلوات ذكرها لهم على صفات بينها، وأمرهم بصيام أيام معروفة من كل شهر، وحثهم على الجهاد لأعداء دينهم، وأمرهم بزكاة الأموال معونة للضعفاء بها، وغلّظ عليهم في الطهارة من الجنابة، وحرّم عليهم لحم الحمار والكلب، وحرّم السُّكْرَ من كل شيء من المشروبات، وشدّد فيه أعظم التشديد، وجعل لهم أعيادًا كثيرة في أوقات معروفة وقربانات منها لدخول

الشمس رؤوس البروج ومنها لرؤية الهلال، وكلما صارت الكواكب في بيوتها وشرفها وناظرت كواكب أخر.

ذكر ما أمر به من القرابين: أمر بتقريب ثلاثة أشياء: البخور والذبائح والخمر، وتقريب كل باكورة فمن الرياحين الورد ومن الحبوب الحنطة ومن الفواكه العنب. ووعد أهل ملّته بأنبياء يأتون من بعده عدَّة، وعرَّفهم صفة النبي صلى الله عليه وسلّم فقال: يكون بريًّا من المذمات والآفات كلها، كامل في الفضائل الممدوحات لا يقصّر عن مسألة يُسأل عنها مما في الأرض والسماء ومما فيه دواء وشفاء من كل ألم، وأن يكون مستجاب الدعوة في كل ما يطلبه، وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذي يصلح به العالم.

ولما ملك إدريس الأرض رتّب الناسَ ثلاث طبقات: كهنة وملوكًا ورعيّة. وجعل

مرتبة الكاهن فوق مرتبة الملك لأن الكاهن يسأل الله في نفسه وفي الملك وفي الرعية، وليس للملك أن يسأل الله إلاّ في نفسه وفي ملكه وفي الرعية، وما له أن يسأله في الكاهن لأن الكاهن أقرب إلى الله منه فقد نقصت منزلة الملك بهذا عن منزلة الكاهن. وليس للرعية أن تسأل الله في شيء إلاّ في نفسها، لأن الملك أجلّ منزلةً منها عند الله الذي ملكه على الرعية فتقصوا بذلك مرتبة عن الملك ومرتبتين عن الكاهن. فلم يزالوا على هذه القاعدة من الفعل في العبادة وآداب الائتمار بهذه الشريعة إلى أن رفع الله إدريس إليه وخلفه أصحابه على شريعته. وكان أقوى الملوك عزمًا من الأربعة اسقلبيوس، فإنه اجتهد لحفظ الكلمة وقوانين الشريعة الإدريسية، وحَزِنَ لرفع إدريس من بين أظهرهم، وصوّر صورته في الهياكل وصورةَ رفعه، وكان اسقلبيوس ملكًا في الجهة التي ملكها يونان بعد الطوفان فوجدوا صورة

إدريس ورفْعِه، وعلِموا علوَّ قدر اسقلبيوس وتدوينه الحكم لهم في الهياكل التي لم يُفسدها الطوفان، فظنوا أن اسقلبيوس هو الذي ارتفع إلى السماء وغلطوا في ذلك غلطًا بيِّنًا لأنهم أخذوه بالحدس، وسيأتي بعض ذلك في أخبار اسقلبيوس إن شاء الله تعالى.

وشريعته - يعني إدريس - هي الممكة الحقيقية، وتُعرَف في ملّة الصابئين بالقَيِّمَة وطبقة المعمور من الأرض وكانت قبلته إلى حقيقة الجنوب على خط نصف النهار.

صورة هرمس الهرامسة وهو إدريس: قيل إنه كان عليه السلام رجل آدم تام القامة أجلح حسنالوجه كث اللحية مليح الشمائل والتخاطيط تام الباع عريض المنكبين ضخم العظام قليل اللحم براق العينين أكحلهما متأنيًا في كلامه كثير الصمت ساكن الأعضاء، إذا مشى أكثر نظره إلى الأرض، كثير الفكرة، به

عبسة، وإذا اغتاظ احتدّ يحرّك سبابته، إذا تكلّم. وكانت مدة مقامه في الأرض اثنين وثمانين سنة. وكان على فص خاتمه: "الصبر من الإيمان بالله يورث الظفر". وعلى المنطقة التي يلبسها في الأعياد: "حفظ الفروض والشريعة من تمام الدين؛ وتمام الدين كمال المروءة". وعلى المنطقة التي يلبسها وقت الصلاة على الميت: "السعيد من نظر نفسه، وشفاعته عند ربِّه أعماله الصالحة". وكانت له مواعظ وآداب استخرجها كل فرقة بلسانها، تجري مجرى الأمثال والرموز؛ فأذكر بعضه إن شاء الله، فمن ذلك:

قوله: لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه. وقال: من أراد بلوغ العلم وصالح العمل فليترك من يده أداة الجهل وسيِّئ العمل، كما ترى الصانع الذي يعرف الصنائع كلها إذا أراد الخياطة أخذ آلتها وترك آلة النجارة؛ فحب الدنيا وحب الآخرة لا

يجتمعان في قلب أبدًا. وقال: خير الدنيا حسرة، وشرها ندم. وقال: إذا دعوتم الله سبحانه وتعالى فأخلصوا النية وكذا الصيام والصلاة فافعلوا. وقال: لا تَحْلِفُوا كاذبين، ولا تهجموا على الله سبحانه وتعالى باليمين، ولا تُحَلِّفوا الكاذبين فتشاركوهم في الإثم. وقال: تجنبوا المكاسب الدنيئة. وقال: أطيعوا ملوككم واخضعوا لأكابركم، واملئوا أفواهكم بحمد الله. وقال: حياة النفس في الحكمة. وقال: اجتنبوا مصاحبة الأشرار. وقال: لا تحسدوا الناس على مواتاة الحظ فإن استمتاعهم به قليل. وقال من تجاوز الكفاف لم يُغنِه شيء.

قال سليمان بن حسان المعروف بابن جُلْجُل:

"الهرامسة ثلاثة: أولهم هرمس الذي كان قبل الطوفان، ومعنى هرمسٍ لقب كما يقال قيصر وكسرى، وتسميه الفرس في سيرها أَبُهَجُل، وتذكر الفرس أن جدّه جيومرث،

وتسميه العبرانيون خنوخ وهو عندهم إدريس أيضًا.

قال أبو معشر: وهو أول من تحكّم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية، وهو أول من بنى الهياكل ومجّد الله فيها، وهو أول من نظر في الطب وتكلم فيه. وألف لأهل زمانه قصائد موزونة وأشعارًا معلومة في الأشياء الأرضية والعلوية. وهو أول من أنذر بالطوفان؛ وذلك أنه رأى أن آفة سماوية تلحق الأرض من الماء والنار، وكان مسكنه صعيد مصر، تخير ذلك فبنى هياكل الأهرام ومدائن البرابي، وخاف ذهاب العلم بالطوفان فبنى البرابي وصوّر فيها جميع الصناعات وصانعيها نقشًا، وصوّر جميع آلات الصُّناع، وأشار إلى صفات العلوم برسوم لمن بعده خشية أن يذهب رسم تلك العلوم. وثبت في الأثر المروي عن السلف أن إدريس أول من درس الكتب، ونظر في العلوم، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة، وهو

أول من خاط الثياب ولبسها، ورفعه الله مكانًا عليًا. وحكى عنه أبو معشر حكايات شنيعة أتيتُ بأخفها وأقربها. انقضى كلام ابن جلجل"[1].

وفي حرف الهاء في أسماء الحكماء، نجد الترجمتين التاليتين - وهما: السابعة والثامنة - من التراجم التي وردت في هذا الباب:

٢. [هرمس الثاني]:

"هذا هو هرمس الثاني بلا شك وهو هرمس البابلي؛ شهدت التواريخ بذلك. من أهل بابل، سكن مدينة الكلدانيين وهو كلوذا، وينسبون إليها كلدنيًا على خلاف الأصل. وكان بعد الطوفان ، وهو أول من بنى مدينة بابل بعد نمروذ بن كوش، وكان بارعًا في علم الطب والفلسفة، وعارفًا بطبائع الأعداد. وكان تلميذ فيثاغورس للأرثماطيقي.

---

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء - مكتبة المتنبي - القاهرة، د.ت: ٢ - ٦.

وهرمس هذا جدّد من علم الطب والفلسفة وعلم العدد وما كان قد درس بالطوفان ببابل. ذكر ذلك أبو معشر.

ومدينة الكلدانيين هذه مدينة الفلاسفة من أهل المشرق، وفلاسفتهم أول من حدّد الحدود ورتب القوانين، وهم فلاسفة الفُرْس، حُذَّاق"[1].

٣. [هرمس الثالث]:

"المصري، والصحيح الذي دلّتْ عليه الأخبار وتواترت أن هذا هو الثالث، وهو الذي يسمى المثلث بالحكمة لأنه جاء ثالث الهرامسة الحكماء، والبابلي هو الثاني، فافهَمْ ذلك تَرشد إن شاء الله !

وهذا رجل من حكماء مصر بعد الطوفان، وكان فيلسوفًا جوالاً في البلاد قديم العهد، عالِمًا بالبلاد ونُصُبِها وطبائع أهلها. وله

---

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢٢٧.

كتاب جليل في صناعة الكيمياء. وكتاب في الحيوانات ذوات السموم. وهو من علماء هذا الإقليم. وأمة إقليم مصر من الأمم المذكورة، وكانوا أهل مُلك عظيم وعز قديم في الدهور الخالية والأزمان السالفة؛ يدلّ على ذلك آثارهم وعمائرهم وهياكلهم وبيوت علمهم الموجود أكثرها في الإقليم إلى يومنا هذا، وهي آثار أجمع أهل الأرض أنه لا مثل لها في إقليم من الأقاليم. فأما ما كان قبل الطوفان فجُهِل خبره وبقي أثرُه مثل الأهرام والبرابي والمغائر المنحوتة في جبال الإقليم إلى غير ذلك من الآثار الموجودة. وأما بعد الطوفان فقد صار أهل الإقليم أخلاطًا من الأمم قبطي ورومي ويوناني وعمليقي، إلاّ أن الغلبة والكثرة للقبط، وإنما خفي على الناس أنسابهم فاقتُصِرَ من التعريف بهم على نسبتهم إلى موضعهم من بلد مصر. وحدُّ بلاد مصر في الطول من برقة التي في جنوب البحر الرومي إلى أيلة من ساحل الخليج من بحر الحبشة

والزنج والهند والصين ومسافة ذلك قريب من أربعين يومًا، وحدُّها في العرض من مدينة أسوان التي بأعلى نيل مصر وما سامتَها من أرض الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة إلى مدينة رشيد وما حاذاها من مساقط النيل في البحر الرومي وما اتصل بذلك ومسافته قريب من ثلاثين يومًا. وكان أهل مصر في سالف الزمان صابئة تعبد الأصنام وتدبّر الهياكل ثم تنصّرت عند ظهور دين النصرانية ولم تزل على ذلك إلى أن فتحها المسلمون فأسلم بعضهم وبقي سائرهم على دينهم أهل ذمة إلى اليوم. وكان لقدماء أهل مصر الذين كانوا قبل الطوفان عناية بأنواع العلم وبحث على غوامض الحكم، وكانوا يرون أنه كان في عالم الكون والفساد قبل نوع الإنسان أنواع كثيرة من الحيوانات على صور غريبة وتراكيب شاذة، ثم كان نوع الإنسان تغلّب على تلك الأنواع حتى أفنى أكثرها وشرّد بقيّتها إلى القفار

والفلوات فمنهم الغيلان والسعالي وأمثال ذلك. وذلك مما ذكره عنهم الوصيفي في تاريخه المؤلَّف في أخبارهم.

وزعم جماعة من العلماء أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان إنما صدرت عن هرمس الأول الساكن لصعيد مصر الأعلى، وهو الذي يسميه العبرانيون أخنوخ النبي بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم، وهو إدريس النبي صلى الله عليه وسلم على ما تقدّم ذكره في أول الكتاب. وقالوا إنه أول من تكلم في الجواهر العلوية والحركات النجومية، وأول من بنى الهياكل ومجّد الله فيها، وأول من نظر في علم الطب وألَّف لأهل زمانه قصائد موزونة في الأشياء الأرضية والسماوية. وقالوا إنه أول من أنذر بالطوفان؛ ورأى أن آفة سماوية تلحق الأرض من الماء والنار، فخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبنى الأهرام والبرابي في صعيد مصر الأعلى، وصوّر فيها

جميع الصناعات والآلات، ورسم فيها صفات العلوم حرصًا منه على تخليدها لمن بعده خيفة أن يذهب رسمها من العالم، والله أعلم.

وكان بمصر بعد الطوفان علماء بضروب الفلسفة من العلوم الرياضية والطبيعية والإلهية، وخاصة علم الطلسمات والنيرانجيات والمرائي المُحرِقَة، والكيمياء وغير ذلك. وكانت دار العلم والملك بمصر في قديم الدهر مدينة منف، وهي بالقبطية مافة، وهي على اثني عشر ميلاً من الفسطاط. فلما بنى الإسكندر مدينة الإسكندرية رغب الناس في عمارتها لحُسْن هوائها وطِيب مائها، فكانت دار الحكمة بمصر إلى أن تغلَّب عليها المسلمون واختطَّ عمرو بن العاص على نيل مصر مدينته المعروفة بفسطاط مصر، فانسرب أهل مصر وغيرهم من العرب وغيرهم إلى سكناها، فصارت قاعدة مصر من ذلك الوقت إلى اليوم.

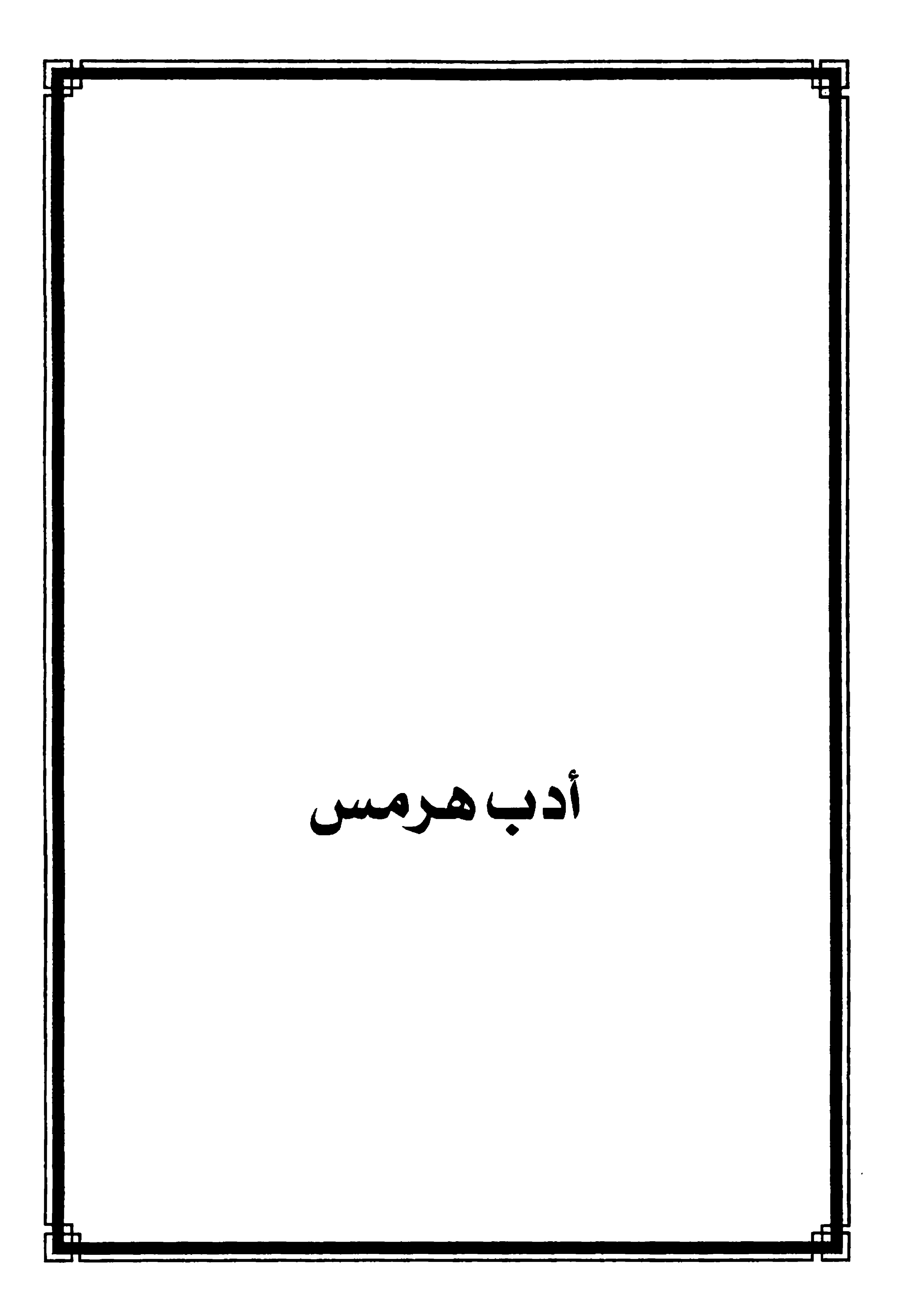
ولهرمس هذا الذي قدّمنا ذكره كلام في صناعة الكيمياء يخرج فيها إلى عمل الزجاج والخرز والغضار. وقال المصريون إن إسقلبيادس الذي يعظّم أمرَهُ يونان كان تلميذًا لهرمس المصري هذا، وأنه رحل إلى مصر من بلاد يونان، واستفاد منه ما استفاد، ثم عاد إلى بلاد يونان فزاده غرائب ما أتى به من العلوم التي لا يعلمونها فعظّموه وحكَوْا عنه حكايات فيها شناعات واستحلالات، تهويلاً لأمره وتعظيمًا لقدره على ما ورد بعضه في أخباره في حرف الألف.

وله من التصانيف المأثورة عنه: كتاب عرض مفتاح النجوم الأول. كتاب مفتاح النجوم الثاني. كتاب تسيير الكواكب. كتاب قسمة تحويل سني المواليد على درجة درجة. كتاب المكتوم في أسرار النجوم المسمى قضيب الذهب.

ونقلت عن صحف هرمس المثلث بالحكمة نبذ[ة] هي من مقالته إلى تلميذه طاطي على سبيل سؤال وجواب بينهما وهي على غير نظام وولاء لأن الأصل كان باليًا مفرقًا"[1].

في هذه التراجم الثلاث حاول القفطي جمع كل ما ورد في المصادر السابقة عليه، ووزعها على الشخصيات الثلاث لهرمس التي عُرِفَتْ في الكتابات العربية، محاولاً تمييز المعالم الخاصة بكل واحدة، لكنه لم يستطع تخليص ملامح كل شخصية تخليصًا تامًّا عن الأُخريين. كما نلاحظ أنه أتى بنصوص فيها استطرادات طويلة تخرج عن المهمة التي تصدَّى لها ولا تخدم هدفه، وجميعها نصوص منقولة من كتب عربية سابقة.

(١) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء: ٢٢٧ – ٢٢٩.



أدب هرمس

تقابلنا في صورة هرمس الحكيم إشكالية يلخصها السؤال التالي:

كيف تكون ملامح هذه الشخصية الموغلة في القدم بهذا الاستواء والاكتمال الحضاري والنضج في التجربة الإنسانية؟

وفي الإجابة عن هذا السؤال تفسير لرؤية الثقافة العربية لمسار الحضارة الإنسانية ونشأتها؛ هذه الرؤية المتميزة والتي تختلف جذريا عن الرؤية الغربية الحديثة التي درست نشأة الحضارة الإنسانية من منظور تطوري ارتكز على ما جاء في الكتاب المقدس من تاريخ تم تفسيره بشكل متحيّز ودون موضوعية أو حياد، ليَصُبَّ في اتجاه المقولة اليهودية بأنهم شعب الله الذي عرف – قبل غيره – فكرة التوحيد. لذلك قرأ المؤرخون الغربيون في العصر الحديث الحضارة المصرية بوصفها حضارة وثنية.

١ - مختار الحكم ومحاسن الكلم

للمبشّر بن فاتك

الأمير محمود الدولة أبوالوفاء المبشِّر بن فاتك الآمري فيلسوف مصري عاش في المائة الخامسة للهجرة، في خلافة الظاهر ابن الحاكم بأمر الله الفاطمي، وابنه المستنصر. له كتاب "مختار الحِكَم ومحاسن الكَلِم"، وضعه سنة ٤٤٥ هـ = ١٠٥٢م. ويقول عبد الرحمن بدوي محقق الكتاب(١): "هو أول كتاب عربي في تاريخ الفلسفة استقصى فيه صاحبه أخبار الفلاسفة وتلاها بنُبذ من أقوالهم تدخل في باب الحكم القصار والأمثال". ويقول في موضع آخر: "وما من شك في أن كتاب مختار الحكم هو أوفى كتاب في العربية استقصى أقوال الفلاسفة والحكماء".

فكتاب "مختار الحكم ومحاسن الكلم" ـ كما ينبئ عنوانه ـ كتاب مختارات أدبية. وعادةً ما يتم تبويب كتب المختارات بإحدى

---

(١) أبو الوفاء المُبَشِّر بن فاتك: مختار الحكم ومحاسن الكلم – حققه وقدم له وعلق عليه عبدالرحمن بدوي – منشورات المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد – مطبعة المعهد المصري للدراسات الإسلامية – الطبعة الأولى – مدريد ١٩٥٨: ١م، ٣م.

طريقتين: إما حسب الموضوعات، أو حسب المؤلفين أصحاب النصوص المختارة. وقد آثر المبشِّر بن فاتك الطريقة الثانية لأن موضوع الكتاب واحد هو الأدب الحكمي أو أدب الحكمة، ورتب أصحاب النصوص ترتيبًا تاريخيًا، فبدأ في الفصل الأول من الكتاب بحِكَم شِيث عليه السلام وآدابه، تلاه بفصول تحت العناوين التالية:

حكم ارميس وآدابه، مختار مواعيظ هرمس وآدابه/ آداب صاب/ آداب اسقلبيوس/ آداب أوميروس الشاعر/ أخبار سولون الحكيم، حكمه وآدابه/ أخبار زينون، حكمه وآدابه/ أخبار أبقراط الطبيب، حكمه وآدابه/ أخبار فيثاغورس الحكيم، حكمه وآدابه/ أخبار ذيوجانس المتجرد، حكم ذيوجانس الكلبي الناسك وآدابه/ أخبار سقراطيس الزاهد، حكمه ومواعظه وآدابه/ أخبار أفلاطون، آدابه ومواعظه، ومن مشوراته، ومن حكمه وآدابه/ أخبار أرسطاطاليس، حكمه وآدابه/ أخبار الإسكندر، آدابه ومواعظه/ أخبار بطليموس، حكمه وآدابه/ أخبار لقمان الحكيم/ حكم مهادرجيس وآدابه/ آداب باسيليوس الحكيم/ آداب غريغوريوس المتكلم على اللاهوت/ أخبار جالينوس الحكيم، آداب جالينوس وحكمه/ باب جامع لأقوال

جماعة من الحكماء/ باب آداب لم يُعرف قائلها فجمعت في موضع واحد.

ويرجح عبد الرحمن بدوي أن يكون المبشِّر بن فاتك قد رجع إلى ترجمات عربية لكتب تراجم وأقوال يونانية، ولم يرجع إلى مؤلفين عرب نقلوا عنها، كما يفترض وجود مصدر يوناني منقول إلى العربية استقى منه المبشّر هذه المادة الغزيرة لكنه مفقود الآن في اليونانية[1].

كما يلاحظ أن الآداب التي أوردها المبشّر بن فاتك للحكماء "ذات ديباجة عربية خالصة لا تشتمّ منها رائحة ترجمة، مما يقطع بأن قلمًا عربيًا عالي الأسلوب قد جرى في الترجمات عن اليونانية"[2].

ولم يشأ عبد الرحمن بدوي أن يقطع بأن المبشر بن فاتك نفسه هو صاحب ذلك القلم. لكنني أرجّح ذلك خاصةً عندما نطالع فصول الكتاب الأخرى نجد الأسلوب واحدًا وتلك الديباجة العربية هي هي. وليس أبو الوفاء أول من فعل ذلك؛ فقبله – كما

---

(١) السابق: ٣م، ٤م.

(٢) السابق: ٤م.

يشير د. بدوي أيضًا – نجد الجاحظ في كتبه وابن قتيبة، والتوحيدي، وغيرهم، يتصرفون في الترجمات عن اليونانية أو السريانية لتخرج في صياغة عربية لاتشوبها عجمة أو ركاكة.

وفي مقدمة الكتاب يتحدث المبشّر بإيجاز عن طبيعة كتابه بما هو مختارات من أقاويل الحكماء، وعن منهجه في الاختيار يقول:

"اعتمدتُ في ذلك على انتخاب كلام الإلهيين منهم، الموحدين من جملتهم. إذ كانت أقاويلهم شافية ومقاصدهم صحيحة. وأتْبَعْتُهُم باللاحقين بهم في الحكمة المشهورين بالأفعال الحسنة"[1].

ثم يورد بعد ذلك مباشرة فصلاً بعنوان: "فصول كلام شيث النبي عليه السلام وآدابه". يليه فصل خاص بهرمس جعله في قسمين، الأول بعنوان: "حكم ارميس وآدابه"، والثاني بعنوان: "مختار مواعيظ هرمس وآدابه".

– [القسم الأول: حكم أرميس وآدابه:]

"وهو إدريس النبـي صـلوات الله عليـه وسلامه، وشيء من أخباره"،

---

(١) السابق: ٣.

ولد هرميس الهرامسة بمصر في مدينة منف منها. وهو باليونانية " أرميس" فقيل: "هرميس". ومعنى "أرميس": عطارد. ويسمى أيضًا عليه السلام عند اليونانيين طرميس، وعند العرب إدريس، وعند العبرانيين خنوخ، وهو ابن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام. وكان قبل الطوفان الكبير الذي غرَّق الدنيا، وهو الطوفان الأول. وكان بعده طوفان آخر غرَّق أهل مصر فقط. وكان في بداية أمره تلميذًا لغوثاديمون المصري. وكان غوثاديمون أحد أنبياء اليونانيين والمصريين. وهو أوراني الثاني عندهم؛ وإدريس أوراني الثاني عليه السلام. وتفسير اسم غوثاديمون: السعيد الجد.

وخرج هرميس عن مصر، ودار الأرض كلها، وعاد إلى مصر ورفعه الله إليه بها. قال الله تعالى: "ورفعناه مكانا عليًّا" وذلك بعد اثنتين وثمانين سنة، ودعا الخلائق من أهل سائر

الأرض إلى البارى عز وجل باثنين وسبعين لسانا، وآتاه الله الحكمة فكلَّمهم بلغاتهم المختلفة وعلَّمهم وأدَّبهم وبنى لهم مائة مدينة وثمانى مدن عظام أصغرها الرُّها. وكان أول من استخرج علم النجوم، وأقام لكل إقليم سُنَّةً تليق بهم وتقارب آراءهم. وخدمَتْهُ الملوك وأطاعه أهل الأرض كلها وأهل الجزائر التى فى البحار. وخدمة أربعة ملوك. وكل واحد منهم ولى - بأمره عليه السلام - الأرض كلها: فأولهم ايلاوس وتفسيره الرحيم، والثانى ابنه آوس، والثالث اسقلفيوس، والرابع آمون وهو ابسيلوخش.

ودعا إلى دين الله والقول بالتوحيد وعبادة الخلق وتخليص النفوس من العذاب. وحرَّض على الزهد فى الدنيا والعمل بالعدل وطلب الخلاص فى الآخرة، وأمرهم بصلوات ذكرها لهم على صفات بيَّنها لهم وصيام فى أيام معروفات من كل شهر، والإقدام على الجهاد

لأعداء الدين والزكـاة عـن الأمـوال، ومعونـة الـضعفاء بهـا. وغلَّـظ علـيهم في الطهـارة مـن الجنابة والحيض ومس الموتى، وأمرهم بتحـريم أكل الخنزير والحمار والجمل والكلـب وغيرهـا من المآكـل. وحـرَّم الـسُّكْر مـن كـل شيء مـن المشروبات، وشدَّد فيه أعظم تشدُّد: وجعل لهم أعيادًا كثيرة في أوقات معروفة، وصلوات فيهـا وقربانـات: منهـا لـدخول الـشمس رءوس البروج، ومنها لرؤية الهلال وأوقات القرانـات. وكلما صارت الكواكب إلى بيوتها وأشرافهـا أو ناظرت كواكب أخرًا، قرَّبُوا قربانًـا. والقـرابين فيما جاء به ثلاثـة أشـياء: البخـور، والـذبائح، والخمـر، ويقرِّبـون مـن بـاكورة الأشـياء مـن الرياحين الورد ومن الحبوب الحنطة والـشعير، ومـن الفاكهـة العنـب، ومـن الأشربـة الخمـر. ووعدهم أنه سيأتي بعده عدّة أنبيـاء. وعـرَّفهم أن من صفات النبي المبعوث أن يكون بريئًا مـن المـذمَّات والآفـات كلهـا، كـاملاً في الفـضائل

الممدوحات كلها، لا يُقَصِّر عن مسألة يُسأل عنها مما في السموات والأرضين، وأن يدلّ على ما فيه الشفاء من كل ألم، وأن يكون مستجاب الدعوة في كل ما طلبه من إنزال الغيث ورفع الآفات وغير ذلك من المطالب؛ وأن يكون مذهبه ودعوته المذهب الذي يصلح به العالم وتكثر عمارته. ورتَّب الناس ثلاث طبقات: كهنة وملوكًا ورعية. ومرتبة الكاهن فوق مرتبة الملك، لأن الكاهن يسأل الله في نفسه ومُلكه ورعيته، وليس للملك أن يسأل الله تعالى في شيء إلاّ في نفسه ورعيته، وليس للرعية أن تسأل الله شيئًا إلاّ لأنفسها فقط.

وكان – عليه السلام – رجلاً آدم اللون، تامّ القامة، أجلح، حسن الوجه، كثّ اللحية، مليح التخاطيط، تامّ الباع، عريض المنكبين، ضخم العظام، قليل اللحم، برّاق العينين أكحل، متأنيًا في كلامه، كثير الصمت، ساكن الأعضاء، إذا مشى أكثر نظره إلى الأرض، كثير

الفكرة، به جد وعبسة. يحرك - إذا تكلم - سبابته. وكان مدته على الأرض اثنتين وثمانين سنة؛ وكان على فص خاتمه الذي يلبسه في كل يوم: "الصبر من الإيمان بالله يورث الظفر". وعلى فص الخاتم الذي يلبسه في الأعياد: "تمام الفرح بالأعياد الأعمال الصالحة". وعلى فص خاتمه الذي يلبسه إذا صلى على ميت: "الأجل حصاد الأمل، والموت رقيب غير غافل". وعلى المنطقة التي يلبسها دائمًا: "النظر في العاقبة يورث سلامة النفس والبدن من الأعراض المؤذية". وعلى المنطقة التي يلبسها في الأعياد: "حفظ الفروض والشريعة تمام الدين؛ وتمام الدين كمال المروءة". وعلى المنطقة التي يلبسها وقت الصلاة على الميت: "من نظر لنفسه فاز، وشفاعته عند ربِّه أعماله الصالحة".

وانتهت شريعته - وهي الملة الحنيفية، وتُعرَف أيضًا بدين "القيِّمَة" - إلى مشارق الأرض ومغاربها، وشمالها وجنوبها، وطبَّق

الأرض بأسرها حتى لم يبق على وجه الأرض آدميٌّ إلاّ وهو يدين بها. وكانت قبلته إلى حقيقة الجنوب على خط نصف النهار".

- [القسم الثاني: مختار مواعيظ هرمس وآدابه:]

وهو - عليه السلام - إدريس النبي المثلث بالنبوة والحكمة والملك.

قال: لن يستطيع أحدكم أن يشكر الله عز وجل على نعمه بمثل الإنعام بها على خلقه.

وقال: من أراد بلوغ العلم وصالح العمل فليترك من يده أداة الجهل وسيِّئ العمل، كما أن الصانع الذي يعرف الصنائع كلها إذا أراد الخياطة أخذ آلتها وترك آلة النجارة؛ وإذا أراد الكتابة أخذ آلتها وترك آلة الخياطة: فحب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان في قلب أبدًا.

وقال: أيها الإنسان! إذا اتقيت ربك وحذرت الطرق المؤدية إلى الشر لم تقع فيه.

وقال: لا تمِلْ مع الهوى وحلاوة الدنيا الصادة لك عن الشغل بمعادك فتكون كالغريق المشتغل عن التدبير لخلاص نفسه بحمل بضاعة ثقيلة قد اغترَّ بحسنها وهب سبب عطبه.

وقال: خير الدنيا حسرة، وشرها ندم.

وقال: لم يكن البشر ليهتدوا إلى معرفة عظمة الله – عز وجل – لولا أن عرَّفهم نفسه وهداهم إلى عبادته بالوساطة من أنبيائه وحملة وحيه المختارين المصطفين، الناطقين عن روح القدس، المرشدين إلى تقوى الله وسبيل طاعته، الموقفين لنا على حدود أوامره وزواجره وحفظ نواميسه وسننه والسلوك في مذاهب رضاه المؤدية إلى الحياة الدائمة والنعيم المتصل.

وقال: لا ترفعوا دعاءكم إلى الله بالجهالة ولا بالنيّات المدخولة، ولا تعصوه ولا تتعدوا حدوده ونواميسه. ولا يجرينَّ أحد منكم في

معاملة أخيه إلى ما يكره أن يُعامل بمثله. واتفقوا وتحابوا وثابروا على الصوم والصلاة جماعة ببصائر صافية نقية ونيات غير متقسمة ولا مشوبة، وتوادُّوا على طاعة الله عز وجل والتقوى له، واسعَوْا الخير واجتهدوا فيه. ولتكن تأديتكم فرائض الله عليكم بالتمام والكمال والخشوع والخضوع من غير عُجْب ولا استكبار. وإياكم والتفاخر والتكاثر، وعليكم بالإخبات والتواضع، لكيما تستثمروا ثمار الخير من أعمالكم.

وقال: ابعدوا عن مخالطة الخونة والفسقة ومبتغي الضلال ومقابح الأعمال.

وقال: لا تحلفوا كاذبين، ولا تهجموا على الله باليمين، واعتمدوا الصدق حتى يكون "نعم" من قولكم "نعم"، و"لا" "لا". وتورعوا عن تحليف الكذابين بالله جل ذكره؛ وإياكم أن تشاركوهم في الإثم إذا علمتم منهم الحنث. وليكن الآثر في نفوسكم أن تكلوهم إلى

الله عالم السرائر فحسبكم به من حاكم بعدل، وناطق بفصل، يوم يُجزى المُحسن بإحسانه والمسيء بإساءته.

وقال: اعلموا واستيقنوا أن تقوى الله سبحانه هي الحكمة الكبرى والنعمة العظمى والسبب الداعي إلى الخير والفاتح لأبواب الفهم والعقل، لأن الله سبحانه وتعالى لما أحب عباده وهب لهم العقل واختص أنبياءه ورسله بروح القدس، فكشفوا لهم عن سرائر الديانة وحقائق الحكمة لينتهوا عن الضلال ويتبعوا الرشاد.

وقال: استشعروا الحكمة واتبعوا الديانة وعوّدوا أنفسكم الوقار والسكينة، وتحلَّوْا بالآداب الحسنة الجميلة. روّوا في أموركم ولا تعجلوا، ولا سيما في مجازاة المسيء؛ واجعلوا الحياة ملء وجوهكم، والخيفة من الله حشو جنوبكم، وتدبروا بالصحة والاستقامة، واحذروا عواقب الندامة. فبسلوك هذه السبل

تـصير الـنفس حـرة معتوقـة مـن رق الجهالـة وعبودية الحداثة.

وقـال: إن يكـن مـن أحـدكم فرطـة وارتكب منكرًا فليُقْلِعْ عنها، ولا تحمله السلامة عنها على المعاودة إليها، بل على التوبة والإقـلاع عنهـا؛ فإنهـا وإن سُـتِرَتْ عليـه في الـدنيا فإنـه يُفتضَح بها يوم الدين ويُجازى عنهـا بعقوبـة لا رحمة معها.

وقال: تأدبوا بآداب الله التي دعاكم إليهـا وأمركم بحفظهـا؛ واتبعـوا الحكـماء والعلـماء، وخـذوا عـنهم الفـضائل؛ ولـتكن شـهواتكم مصروفة إلى طلب الحمد واستحقاق المدح، ولا تصرفوها إلى الشرور ومقابح الأمور.

وقـال: وتحـرَّزوا واهربـوا مـن المآكـل الخبيثة، واختشموا المكاسـب الدنيَّـة فإنهـا وإن ملأت أكياسكم من المال فإنها تفرغ قلوبكم من الإيـمان، وعـوِّدوا نفوسـكم إكـرام الأخيـار

والأشرار: أما الأخيار فمن أجل خيرهم، وأما الأشرار فلاستكفاف شرهم.

وقال: تحفظوا من مخالطة القوم الذين لا يهتدون إلى الحق ولا يكملون معرفته ولا يتعلقون منه بعصمة، غير أنهم يسمعونه سماعًا ولا يعقلونه فعالاً. لا تنصبوا لمكاره الناس الحبائل، ولا تبغوا لهم الغوائل، ولا تسعوا لهم في المضرَّة، فإن ذلك لا يخفى؛ ومتى خفي في الأول لم يخفَ في المُستأنَف. وارفعوا أنفسكم عن أن تفعلوا هذا الفعال وتقوموا هذا المقام.

وقال: اجمعوا بين محبة الديانة والحكمة، وقفوا نفوسكم على تعليمها؛ وإن قدرتم على أن يكون زمان مقامكم في هذه الدنيا مصروفًا بأسره إلى ذلك دون غيره فافعلوا. ومتى كنتم بهذه الصفة سهل عليكم ما يصعب على غيركم، وكان ما يحصل لكم من شرف الفضيلة أنفع من ذخائر الذهب والفضة وسائر

أصناف القنية، إذ كانت عروض الدنيا تفنى ولا تبقى، وثواب الله يبقى ولا يفنى.

وقال: ساووا بين باطنكم وظاهركم في المخاطبات بينكم، ولا تكن ألسنتكم مخالفة لضمائركم.

وقال: أطيعوا الله وأطيعوا رؤساءكم واخضعوا لسلطانكم وأكرموا كبراءكم، وبرُّوا مؤدبيكم. ولتغلب عليكم محبة الله والحق. ولا تخالفوا الرأي الصواب ومشاورة النصحاء لتأمنوا الندامة وتسلموا من الملامة.

وقال: ولتكن أفواهكم مملوءة بحمد الله وشكره عند الشدة والرخاء، والفقر والغَناء.

وقال: لا تتفاضلوا إلاّ بأعمالكم، ولا تجوروا في الحكم، ولا تستعملوا النفاق، ولا تُزَكُّوا الخونة، ولا تُخَوِّنوا الأزكياء.

وليكنَ الفقر مع الاستقامة أحبَّ إليكم من الثروة مع الإثم، فإن المال يفنى وأعمال البر والخير تبقى.

وقال: لا تحبوا كثرة الضحك والهزل، ولا تطنزوا بالناس. وإن ظهرتم من أحد على عاهة أو عورة أو حالة مذمومة فلاتعيبوه ولا تضحكوامنه، بل اعتبروا وارجعوا إلى الله، فإن البشرية تجمعكم وأنتم وهو من طينة واحدة خلقتم؛ وليس الضاحك منه بآمِن من أن يناله مثله في المستأنَف. والواجب عليكم إذا رأيتم ذوي البلوى أن ترفعوا نواظركم إلى الله سبحانه وتحمدوه على العافية وتسألوه الإعاذة.

وقال: إذا جادلكم المخالفون لكم في الدين بالفظاظة وسوء القول فلا تقابلوهم بمثل ذلك، بل بالرفق والدلالة والهداية ولُطف المخاطبة. واعتصموا بالله وقولوا بأجمعكم: اللهم أصلح بريَّتك وأَجْرِ عليهم من قضائك وقدرك ما يقودهم إلى الألفة والسلم والإيمان والهدى.

وقال: أكثِروا من الصمت في المحافل، ولا تطلقوا ألسنتكم بحضرة المتحفظين عليكم

بما عسى أن يجعلوه سلاحًا يضربونكم به. وأقلّوا المراء والهذر والفضل من القول.

وقال: حياة الناس في الحكمة، والحكمة في الإيمان بالله عز وجل في حفظ الدين. أو لا تعلمون أن الحكمة والإيمان بالله لا يفترقان: إن وُجِدَ أحدهما وُجِد الآخر، وإن عُدِم عُدِم؟

وقال: لا يمكن أن يكون الإنسان عادلاً وهو غير خائف من الله عز وجل. وإنما يكون العدول عدولاً إذا استكثروا من خشية الله، وبذلك يُكتسب روحُ القدس في يوم القيامة ويفتح له أبواب الفردوس وعالم النور حتى تسبح أنفسهم مع النفوس المطهَّرة العاملة مع الله سبحانه وتعالى، المستحقة للحياة الأبدية.

وقال: احذروا مصاحبة الأشرار والحُسَّاد والمشتملين على العداوة والأحقاد والسُّكارى والجُهَّال. وإذا هممتم بالخير فقدِّموا فعله لئلاّ يعارضكم سواه فتتوقفوا عنه.

وقال: لا تغبطوا الفاسق على أن يواتيه الحظ، فإن استمتاعه قليل وعاقبته الوبال، والله لا يُصلح أعماله.

وقال: روضوا أولادكم بالتعليم من الصغر وقبل أن يكبروا لئلاّ يتمرَّدوا عليكم ويميلوا إلى الشرور ويلحقكم الإثم فيهم.

وقال: وليكن همُّكم مصروفًا إلى الله ربّ السماء والأرض - سبحانه! - وارفعوا إليه صلواتكم ودعاءكم بصفاء من ضمائركم وعلى غير شوب من خواطركم. واجهدوا أن تناجوه بقلوب سليمة واعتقادات مستقيمة يسمعْ منكم ويستجبْ لكم ويُبلغكم آمالكم ويفتح لكم أبوابَ الرُّشد في مساعيكم ومتوجَّهاتكم ويعصمكم من أفكار السوء ويحفظْ أنفسكم من المكاره ويُنجِّكم من فخاخ الآثام ويردّ عنكم المخاوف ويَكُبَّ رؤوس أعدائكم تحت أقدامكم.

وقال: وإذا دخلتم في الصيام فطهِّروا نفوسكم من كل دنس ونجس، وصوموا لله بقلوب خالصة صافية متنزِّهة عن الأفكار السيئة والهواجس المنكرة، فإن الله يستنجس القلوب الملطخة والنيات المدخولة. ومع صيام أفواهكم من المآكل فلْتَصُمْ جوارحكم من المآثم، فإن الله لا يرضى منكم بأن تصوموا عن المطاعم فقط، لكن عن المناكير كلها والفواحش بأسرها. ليت شعري! ما يغني عنكم الصوم إذا كانت أفعالكم مذمومة وبصائركم مشوبة؟! وواظبوا في صيامكم على بيوت الله، واعمروها بالصلاة والدعاء، ولا تستكثروا بالعبادة ولا تروموا بها السمعة والشهرة، بل استعملوها بالتذلل لله عز وجل والاستكانة له. وإذا أديتم فرائضكم وعيَّدتم أعيادكم وانقلبتم إلى منازلكم مسرورين بحرمكم وأولادكم فاذكروا أهل الضُّرِّ والمسكنة، ومُدُّوا أيديكم إليهم بالبر والمواساة.

وقال: نَفِّسوا عن المكروبين. فَرِّجوا عن المحزونين. افتدوا الأسارى. عالجوا المرضى. اكسوا العُراة. أضيفوا الغرباء. أطعموا الجياع. أرْوُوا العِطاش. عَزُّوا المُصاب. خلِّصوا المظلومين ممن يظلمهم.

وقال: لا تزيدوا المحزونين حزنًا، ولا تصبروا مع خطوب زمانهم عونًا عليهم، بل سلُّوهم وعزّوهم وعاونوهم وعاضدوهم وواسوهم بالقول الحسن والفعل الجميل. وإن كانوا ممن أسلفوكم الإساءة فاغتفروا لهم وانتصروا بهم على ما نالهم من العقوبة.

وقال: اكتسبوا الأصدقاء، وقدّموا الاختبار لهم قبل الاستنامة إليهم، ولا تعجلوا بالثقة بهم قبل المحنة لئلاّ يلحقكم الندم وتنالكم منهم المضرّة.

وقال: مَن أعطاه الله فضلاً في دنياه فلا يفخرَنَّ به على أخيه، ولا يتداخلْه الكبر

والتعاظم، وليكن ذلك الفضل مُحتَقَرًا في عينه، فإن الله عز وجل خلق الفقراء والأغنياء خلقًا واحدًا وهم عنده سواء.

وقال: لا تبدر منكم عند الغضب كلمة الفحش فإنها تزيدكم العار والمنقصة، وتُلْحِقُ بكم العيب والهُجْنة، وتجرُّ عليكم المآثم والعقوبة.

وقال: من كظم غيظه وقيَّد لفظه ونظَّف منطقه وطهَّر نفسه - فقد غلب الشرَّ كله.

وقال: لا ينبغي لطالب الحكمة أن يكون طلبه إياها ورغبته فيها لثوابٍ عليها أو ثمنٍ لها، ولكنه ينبغي أن يكون ذلك منه رغبةً لنفسه فيها لفضْلها على كل شيء سواها.

وقال: إذا كانت الحكمة خالصةً فهي معدن كل سعادة، ومظهر كل أدب وماحقة كل سوء.

وقال: خير الملوك شرفًا من بدَّل سُنَّة السوء في مملكته إلى السُّنَّة الصالحة، وشرُّهم من بدَّل السُّنَّة الصالحة الحسنة إلى السُّنَّة السوء.

وقال: الدليل على غريزة الجود السماحة عند العُسْرَة، وعلى غريزة الورع الصدق عند السخط، وعلى غريزة الحلم العفو عند الغضب.

وقال: من سرّه مودّة الناس إياه ومعونتهم له وحسن القول منهم فيه حقيق بأن يكون على مثل ذلك لهم.

وقال: من أحب أن يُجاد عليه عند فاقته فلْيَجُدْ مما وُسِّع له فيه على أهل الحاجة إليه.

وقال: مَن فضَّل العلماء وقَصَدَ العدل واستفاد العمل الصالح واجتهد في طلب الحكمة وتزيَّن بالأدب، أصاب ما يرغب فيه من خير الدنيا والآخرة.

وقال: أعظم الناس مصيبةً في الدنيا والآخرة من لم يكن له عقل ولا حكمة، ولا له في الأدب رغبة.

وقال: مَنْ مَنَع ما عنده من العلم والأدب للصالحين قوَّى بذلك أجهلَ الأشرار؛ ومن منع العلم لمستحقه منعه الله منفعته في الدنيا والآخرة.

وقال: لا يبخل بالعلم على مستحقيه إلاّ جاهلٌ قليل العلم؛ وإن لم يكن قليل العلم فهو دنيء الهمة حَسَّاد.

وقال: من جاد بالعلم والحكمة فهو أفضل ممن جاد بالمال وأبقى لذكره، لأن المال يفنى والعلم يبقى.

وقال: السلامة ألاَّ يعادي المرء أحدًا ولا تكون منه إساءة إلى من عاداه وأضَرَّ به، بل يحسن إليه ويلين له القول. فإن من أفضل أعمال

العلماء ثلاثة أشياء: أن يبدِّلوا العدوَّ صديقًا، والجاهل عالمًا، والفاجر برًّا.

وقال: الصالح مَن خيرُه خيرٌ لكل واحد ومَن يَعُدُّ خيرَ كل أحدٍ لنفسه خيرًا.

وقال: ما أقل منفعة المعرفة مع غلبة الشهوة! وما أكثر قلة المعرفة مع مِلْك النفس!

وقال: لا تستقلَّ شيئًا من زيادة الله عز وجل لك فتستنفرْ بقيتها منك.

وقال: الموت كسهم مرسل وعمرك بقدر مسيره نحوك.

وقال: مِن أوكد أسباب الحلم رحمة الجُهَّال.

وقال: ربما شَرِقَ شارب الماء قبل ريِّه؛ ومَن تجاوز الكفاف لم يُغْنِه الإكثار.

وقال: الساعي كاذب إلى مَن سعى إليه، أو خائن لمن سعى فيه.

وقال: المزاح يُفني الهيبة كما تُفني النار الحطب.

وقال: الحاسد يكثُر ودُّه في اللقاء وبُغضُه في المغيب، واسمه صديق ومعناه عدوّ.

وقال: اللحظ طرف الضمير.

وقال: الفرصة سريعة الفوت بطيئة العَوْدة.

وقال: لا أشْجَع مِن بريء، ولا أجبن مِن مُريب!

وقال: من جرى في عنان أمله عثر بأجله.

وقال: كأنَّ الحاسد إنما خُلِقَ ليغتاظ.

وقال: اقتصَّ مِن شهوةٍ خالفت عقلك بالخلاف عليها.

وقال: إن الغضب إذا كان له سبب يُعرَف كان الرضا سهلاً يسيرًا؛ وإذا كان بلا سبب كان الرضا صعبًا مستصعبًا وذلك لأن المحال غير موجود على كل حال.

وقال: المستشير على طرف النجاح.

وسئل: ما الذي يَهُدُّ؟ فقال: الغضب والحسد؛ وأبلَغُ منهما الهمُّ.

وسئل: ما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبوابَ العلماء؟ فقال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى، ولجهل الأغنياء بفضل العلم، وإن العلم ممدوح بكل لسان، مُتَزَيَّنٌ به في كل مكان.

وقال: العقل بغير أدب كالشجرة العاقر، والعقل مع الأدب كالشجرة المثمرة.

وقال: العلم بالخير والشر هو تمام العلم، وبتمام العلم يكون تمام الحكمة، وتمام الحكمة سلامة العاقبة.

وقال: ما ينبغي للعالِم أن يطلب طاعة غيره وطاعةُ نفسه ممتنعة عليه.

وقال: من عرف الجهل كان عاقلاً، ومن جهله كان جاهلاً. ومن جهل صورة الحكمة

جهل صورة ذاته، ومن جهل ذاته كان بغير ذاته أجهل.

وقال: الناس اثنان: طالب لا يجد، وواجد لا يكتفي.

وقال: الحكمة إنما هي كالجواهر في الصدف في قعور البحار فلا تُنال إلاّ بالغواصين الحُذّاق.

وقال: لا تمدح بكمال العقل من لم يكمل عقلُه، ولا بكمال العلم من لم يكمل علمه.

وقال: الأدب صورة العقل، فحسِّن عقلك ما قدرت.

وقال: العاقل لا تدعه عيوبه يفرح بما ظهر من محاسنه.

وقال: النصح بين الملأ تقريع.

وقال: إعادة الاعتذار تذكير للذنب.

وقال: ما عفا عن الذنب من قرّع به.



وقال: الجاهل صغير وإن كان شيخًا، والعالِم كبير وإن كان حدثًا.

وقال: الدنيا تهين مَن كانت تُكرمه، والأرض تأكل مَن كانت تطعمه.

وقال: غضب الجاهل في قوله، وغضب العاقل في فعله.

وقال: الميِّت يقلُّ الحاسد له، ويَكثُر الكذّاب عليه.

وقال: يكفيك من الحاسد أنه يغتمُّ وقتَ سرورك.

وسُئل عن شيخ له زوجة، فقال: مَن لا يقدر على أن يسبح في البحر كيف يقدر على أن يحمل على عنقه آخر؟!

وقال: اجتنب مصاحبة الكذاب، فإنه مثل السراب يلمع ولا ينفع.

وقال: من تجرَّأ لك تجرَّأ عليك.

وقال: من كثر حقده قلَّ عتابه.

وقال: الحازم من لم يشغله البطر بالنعمة عن العمل للعاقبة، والهمُّ بالحادثة عن الحيلة لدفعها.

وقال: من مدحك بما ليس فيك فلا تأمنه أن يذمك بما ليس فيك.

وقال: الغضب يُصدئ العقل حتى لا يرى صاحبه حسنًا فيفعله، أو قبيحًا فيجتنبه.

وقال: من تكلف ما لا يعنيه فاته ما يعنيه.

وقال: عار الفضيحة يكدِّر لذَّتها.

وقال: لا تقطع أخاك إلاّ بعد عجز الحيلة عن استصلاحه؛ ولا تُتْبعه بعد القطيعة وقيعة فتسدّ طريقه عن الرجوع إليك؛ ولعلَّ التجارب أن تردّه عليك وتُصلحه لك.

وقال: خير الأصحاب من نسي ذنبك فلم يُقَرِّعك به، ومعروفه عندك فلم يَمنُنْ به عليك.

وقال: أعط الحق من نفسك؛ فإن لم تُعطه منها كان الحَكَم خصمك.

وقال: نعمة الجاهل كروضة على مزبلة.

وقال: إخوان السوء كشجرة النار يحرق بعضها بعضًا.

وقال: رب كلام جوابه السكوت؛ ورب عملٍ الكفُّ عنه أفضل؛ ورب خصومةٍ الإعراض عنها أصوب.

وقال: أفضل ما خلق الله تعالى في هذا العالم الناسُ؛ وأفضلُ ما في الناس العقلُ؛ وأفضل أمور العقل تدبر صاحبه بالعدل وكف نفسه عن الذنوب.

وقال: الأحمق لا يحسُّ بشيء من القبيح، والجاهل الذي إذا أحسّ بشيء ظنه غيرَه، والجبان الذي يخاف ما لا يحسّ به.

وقال: أحمد الأشياء عند أهل السماء والأرض لسان ناطق بالحق والعدل.

وقال: الخير والشرُّ واصلان إلى النـاس لا محالة؛ فطوبى والويـل لمـن جـرى وصـولهما إلى الناس على يديه.

وقال: ينبغي للملوك وذوي الـسلطان أن لا يملكوا ويسلطوا إلاّ من له رحمة ومودة لكـل أحد مثل ما يكـون عنـد الأب الـرحيم المحـب للولد الكريم عليه.

وقـال: غايـة الـنفس المنطقيـة المعرفـةُ الحقيقيَّة، وغاية فعـل القـوة الـشهوانية المحبـة، وغاية فعل القوة الغضبية السلامة.

وقـال: كفـى للمـذنب بـالظفر شـفيعًا للمذنب إلى الحكيم.

وسـئل عـن الجـود فقـال: هـو أن تجـود بمالك، وتصون نفسك عن مال غيرك.

وقال: هب ما أنكرت لما عرفت، واغفـر ما أغضبك لما أرضاك.

وقال: أمر الدنيا أكثر من أن تطاع فيها الأحقاد.

وقال: قابل غضبك بحلمك، وجهلك بعلمك، ونسيانك بذكرك.

وقال: الحياء في الصبا أجمل من الخوف، لأن الحياء يدل على العقل والخوف يدل على الرهبة.

وقال: تزوَّدْ من الخير وأنت مقبل - خير من أن تتزوَّد منه وأنت مدبر.

وقال لتلميذه فواطيلس: أفهمت ما قلت لك؟ قال نعم. قال: لا أرى عليك أثر الفهم. قال: وكيف ذلك؟ قال: لا أراك مسرورًا، والدليل على الفهم السرور.

وقال: من لم يسكن موضعًا فيه سلطان قاهر وقاضٍ عادل وطبيب عالِمٍ وسوق قائم ونهر جارٍ فقد ضيع نفسه وأهله وماله وولده.

ووصَّى بسيلوخيس وهو آمون الملك فقال: أول ما آمرك به تقوى الله عز وجل وإيثار طاعته. ومن تولى أمر الناس فقد يجب عليه أن يكون ذاكرًا ثلاثة أشياء: أولها: أن يده مُطْلَقة على قوم كثير؛ والثاني: أن الذين يده مطلقة عليهم أحرار لا عبيد؛ والثالث: أن سلطانه إنما يثبت مدةً يسيرة. فسبيلك أن تطهّر نفسك بحسن النية والقول بالحق. وإياك أن تُمْهل الحرب والجهاد لمن لا يؤمن بالله جل اسمه ويتبع سنتي وشريعتي لما يرغب إليه من دخولهم في طاعة الله عز وجل. واحذر أن ترغب في أخذ أموالهم وتركهم على طغيانهم، فإن المال لا رغبة فيه إلاّ من حلّه وما لله - جل اسمه - فيه رضًا. واعلم أن الرعية تسكن إلى من أحسن إليها ولا تحسن المملكة إلاّ بالرعية. فمتى ما لم تكن للسلطان رعية حصل سلطان نفسه إذا سلم منه. وإياك والغفلة عن النظر في أمورهم وأمور مملكتك ثم نفسك.

وقدِّم ما تصلح به آخرتك ينصلح أمر دنياك. وسبيلك إذا لاقيت حربًا أن تكون حازم الرأي في جميع أمرك. واحذر الهزيمة فإنها إذا وقعت بعسكر ليس يشدّ حزامًا سريعًا. وأكثِر الجواسيس لتكون أخبار أعدائك معك وقتًا فوقتًا. واحذر من حيلة تعمل عليك. وإذا أمرت بأمر فاسأل عنه بعد ذلك ولا تقصّر فيه فيلحقك من ذلك نقصان الهيبة. وإذا أمرت أن يُكتب لك كتاب فاحذر ختمه وإنفاذه دون أن تقرأه أنت، لأن الحيل تقع بالملوك؛ وما أنت أول ملك أُهِّل لهذا الأمر. وإياك أن تأنس إلى أحد وتكشف إليه سرَّك، بل يكون خواصك ورعيتك يأنسون إليك بحسن سياستك لهم.

واجعل النوم لك بقدر راحة جسمك، ولا تشغل نفسك إلا بجد الأشياء ليكون أمرك كله جدًّا بلا هزل. وإذا هممت فافعل؛ وإذا ظفرت فأبقِ، وإذا أبقيت فاحذر. وإياك

والغفلة عن الكيمياء العظمى وسياسة أهلها وميل قلوبهم والمسامحة لهم وهم الفلاحون، وإن الكيمياء عمارة الأرض بالزرع والنبات، فإن الرعية بها يسكنون، والجيد منها يكثرون، وبيوت الأعمال منها تعمر، والدولة بها تثبت. فليس سبيلك أن تغفل عن أمرٍ هذا عقباه. وسبيلك أن تكرم أصحاب المراتب في المذهب من كل إنسان على قدر أهله وعلمه. وانتهز إكرامهم لئلاّ تجهل الرعية حقوق أهل الفضل. ومن يطلب العلم فأكرمه واعرف حقه وفوّض الإحسان إليه لتزيد همّتُه فيه ويلطف عقله ويصفو ذهنه ويقل همُّه في أمر دنياه – تنتفع به إن شاء الله. وعَجِّل العقوبة على المفسدين في الأرض بعد أن يصحَّ عندك جُرمهم وتتضح جنايتهم.

ومَن قدح في مُلْكك فاضرب عنقه وأَشْهِرْه ليحذر غيره. ومن سرق فاقطع يده.

ومن تلصص في طريق فاضرب عنقه واصلبه ليشتهر بذلك وتأمن سبلك. ومن وجد مع ذكر مثله يفسق به فحرقه بالنار واجب، ومن وجد مع امرأة يزني بها فاضربه خمسين جلدة، وارجم المرأة مائة حجر بعد إقامة البينة الثقة على ذلك. واحذر أن تسمع قول ساع: بل إذا صح عندك سعايته فعجِّل عليه العقوبة وأشهره تُرح قلبك أن يشاغل بالمحال.

وإياك والغفلة عمن في الحبوس في كل شهر لئلا يكون فيهم مظلوم: فمن استحق التخلية أطلقت سبيله بعد الإحسان إليه. وإن استحق العقوبة عجَّلت عليه. ومن استحق أن يمهل عليه إلى أن يكشف عن حاله رددته فيه. واحذر الإعجاب برأيك؛ والزم المشاورة لمن حسن عقله وطعن في سنّه لكثرة ما مر عليه من التجارب. وحصّل آراءهم: فإن رأيت في أحدهم سدادًا، وإلاَّ فاعقد أنت من جميعهم رأيًا سديدًا تَرشُدْ وبالله التوفيق.

وقال: الشريف من استعمل الفضائل. وأعظم الشرف العدل والفقه والجود قبل الطلب.

وقال: حقيق أن يطلب المرء الحكمة ويثبتها في نفسه؛ ولا يجزع من المصائب التي تعم الأخيار؛ ولا يأخذ بالكبْر ولا فيما يبلغ من سرف ولا يزهو بحال الغنى والسلطان؛ ويعدل بين نيته وقوله وفعله؛ وتكون سنته لا عيب فيها، ودينه غير مختلف، وحجته لا تنقض؛ فما يغير الله ما به من الأمن له ولعقبه.

وقال: لا يستطيع أحد أن يجد الخير والحكمة إلاّ أن تخلص نفسه في المعاد. ولا خلاص له منه إلاّ أن تكون له ثلاثة أشياء: وزير، ووليٌّ، وصديق. فوزيره عقله، ووليُّه عفَّته، وصديقه عمله الصالح.

وقال: لكل شيء حيلة غيرَ الموت؛ وكل شيء فانٍ غيرَ الإثم؛ وكل شيء يبيد غيرَ العمل

الصالح؛ وكل شيء يُطاق تغييرُه غيرَ الطباع؛ وكل شيء يُقدَر على إصلاحه غيرَ الخلق السوء؛ وكل شيء يُستطاع دفعه غيرَ القضاء.

وقال: ليس العجب ممن امتَنَعَتْ عليه الشهوات أن يكون فاضلاً. وإنما العجب ممن الشهوات مقرونة به ويكون فاضلاً.

وقال: لا خير فيمن يستر وجه العفو بمكروه التقريع.

وقال: لا تعاجل الذنب بالعقوبة، واجعل بينهما للاعتذار طريقًا.

وقال: زلة العالِمِ تكسر السفينة تَغْرِقُ وتُغْرِق خَلْقًا كثيرًا.

وقال: الغِنَى وطن، والفقر غربة؛ والطمع رِقٌّ، واليأس حُرّيّة.

وقال: إذا لم يكن الملك يقدر على قهر حواسّه وغلبة شهواته، فكيف يقدر على ضبط رعيته وما وما بَعُد عن مملكته؟! فسبيل الملك

أن يبتدئ بسلطانه على نفسه ليستقيم له سلطانه على غيره"[1].

ملاحظات على البناء اللغوي للحكم

هذا النص على الرغم من طوله يندرج تحت شكل بعينه من الأشكال الأدبية وهو "الحكم والأمثال". وهذا الفن قديم في الآداب الإنسانية، بل ربما كان "أقدم أبواب الأدب عند الأمم كافة"[2].

---

(١) أبو الوفاء المبشر بن فاتك: مختار الحكم ومحاسن الكلم - حققه وقدم له وعلق عليه عبدالرحمن بدوي - منشورات المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد - مطبعة المعهد المصري للدراسات الإسلامية - الطبعة الأولى- مدريد ١٩٥٨: ٧ - ٢٦.

(٢) جورج سارتون: تاريخ العلم - دار المعارف - القاهرة ١٩٩١ - ٢: ٢٩١.

وتؤكد نتائج البحث الحديث "أن مصر كان لها قصب السبق في الإنتاج الأدبي في باب الحكم والتأملات"(١). وكانت الحكمة تُعَلَّم في المعابد والمدارس، في بابل ومصر وسورية، وكانت مدارس الحكمة في الشرق القديم تقوم في المعابد أو تُلحَق بها، كما كان الحكيم القديم رجلَ دينٍ في الغالب، وهذا ما جعل بعض الباحثين يفترض أن أدب الحكمة نشأ من أدب التعبُّد الديني. لكن الحكمة اقترنت منذ نشأتها بالسلطة الدينية والزمنية معًا؛ فبعضها يتعلق بالدعوة إلى الألوهية وعبادة الله، والبعض الآخر يعالج مسائل في الطب والتشريع والأخلاق والسياسة(٢).

وتمتاز الأقوال الحكمية بأنها سهلة الحفظ، لذلك جاءت حكم هرمس هنا في شكل أقوال قصيرة موجزة لا يتعدَّى أغلبها السطر الواحد وأحيانًا أقل: (خير الدنيا حسرة وشرها ندم). لكن واحدة منها جاءت في فقرة طويلة تجاوزت الصفحتين؛ وهي وصيته

---

(١) سليم حسن: الأدب المصري القديم أو أدب الفراعنة – مطبوعات كتاب اليوم – القاهرة ١٩٩٠ – ١: ١٨١.

(٢) عبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ١٩٨٩: ١٣٢، ١٣٣.

لبسيلوخيس أو آمون الملك، والتي يبدؤها بقوله: "أول ما آمرك به تقوى الله". وكل حكمة تأتي مسبوقة بالفعل الماضي: "قال"، ثم يتلوه نص الحكمة في شكل جملة خبرية بسيطة: (خير الدنيا حسرة)، أو صيغة نداء: (أيها الإنسان)، أو أسلوب شرط: (من أراد بلوغ العلم، إذا جادلكم المخالفون)، أو أمر: (تأدَّبوا، اجمعوا، احذروا)، أو نهي: (لا تحلفوا كاذبين، لا تغبطوا الفاسق، لا تستقلَّ شيئًا)، أو جملة اسمية منفية: (ليس العجب).

والخطاب في الجمل الإنشائية يكون في الغالب للمجموع بإسناد الفعل لواو الجماعة، وأحيانًا يكون للمفرد بإسناد الفعل لضمير المفرد المذكَّر.

٢ - الملل والنحل

للشهرستاني

يبدأ الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) الجزء الثاني من كتابه "الملل والنحل" بالحديث عن الصابئة، تحت عنوان "ذكر أهل الأهواء والنحل"، ويقول إن "هؤلاء يقابلون أرباب الديانات تَقَابُلَ التضادّ".

ويتبع ذلك بإيراد حكم هرمس:

قال هرمس: أول ما يجب على المرء الفاضل بطباعه المحمود بسنخه المرضي في عادته المرجو في عاقبته تعظيم الله عز وجل وشكره على معرفته، وبعد ذلك فللناموس عليه حق الطاعة له والاعتراف بمنزلته، وللسلطان عليه حق المناصحة والانقياد، ولنفسه عليه حق الاجتهاد والدأب في فتح باب السعادة، ولخلصائه عليه حق التحلي لهم بالود والتسارع إليهم بالبذل، فإذا أحكم هذه الأسس لم يبق

عليه إلا كف الأذى عن العامة وحسن المعاشرة بسهولة الخلق.

انظروا معاشر الصابئة! كيف عظم أمر الرسالة حتى قرن طاعة الرسول الذي عبّر عنه بالناموس بمعرفة الله عز وجل، ولم يذكر ههنا تعظيم الروحانيات ولا تعرض لها وإن كانت هي من الواجبات.

وسئل: بماذا يحسن رأي الناس في الإنسان؟ قال: بأن يكون لقاؤه لهم لقاء جميلا ومعاملته إياهم معاملة حسنة.

وقال: مودة الإخوان أن لا يكون لرجاء منفعة أو لدفع مضرة، ولكن لصلاح فيه وطباع له.

وقال: أفضل ما في الإنسان من الخير العقل، وأجدر الأشياء أن لا يندم عليه صاحبه العمل الصالح، وأفضل ما يحتاج إليه في تدبير

الأمور الاجتهاد، وأظلم الظلمات الجهل، وأوبق الإشياء الحرص.

وقال: من أفضل البر ثلاثة: الصدق في الغضب، والجود في العسرة، والعفو عند المقدرة.

وقال: من لم يعرف عيب نفسه فلا قدر لنفسه عنده.

وقال: الفصل بين العاقل والجاهل أن العاقل منطقه له، والجاهل منطقه عليه.

وقال: لا ينبغي للعاقل أن يستخفَّ بثلاثة أقوام: السلطان، والعلماء، والإخوان؛ فإن من استخفَّ بالسلطان أفسد عليه عيشه، ومن استخف بالعلماء أفسد عليه دينه، ومن استخف بالإخوان أفسد عليه مروءته.

وقال: الاستخفاف بالموت هو أحد فضائل النفس.

وقال: المرء حقيق أن يطلب الحكمة ويثبتها في نفسه أولاً بأن لا يجزع من المصائب التي تعم الأخيار، ولا يأخذه الكبر فيما يبلغه من الشرف، ولا يعير أحدًا بما هو فيه، ولا يغيره الغنى والسلطان، وأن يعدل بين نيته وقوله حتى لا يتفاوت، ويكون سنته ما لا عيب فيه ودينه ما لا يختلف فيه وحجته ما لا ينتقض.

وقال: أنفع الأمور للناس القناعة والرضا، وأضرها الشر والسخط، وإنما يكون كل السرور بالقناعة والرضا، وكل الحزن بالشرَّة والسخط.

ويحكى عنه فيما كتبه أن أصل الضلال والهلكة لأهله أن يعد ما في العالم من الخير من عطية الله عز وجل ومواهبه ولا يعد ما فيه من الشر والفساد من عمل الشيطان ومكايده، ومن افترى على أخيه فرية لم يخلص من تبعتها حتى يجازى بها، فكيف يخلص من أعظم الفرية على

الله عز وجل أن يجعله سببا للشرور وهو معدن الخير؟

وقال: الخير والشر واصلان إلى أهلهما لا محالة، فطوبى والويل لمن جرى وصولهما إلى من وصلا إليه وعلى يديه.

وقال: الإخاء الدائم الذي لا يقطعه شيء اثنان: أحدهما محبة المرء نفسه في أمر معاده وتهذيبه إياها في العلم الصحيح والعمل الصالح، والآخر مودته لأخيه في دين الحق فإن ذلك مصاحب أخاه في الدنيا بجسده وفي الآخرة بروحه.

وقال: الغضب سلطان الفظاظة، والحرص سلطان الفاقة، وهما منشأ كل سيئة ومفسدا كل جسد ومهلكا كل روح.

وقال: كل شيء يطاق تغييره إلا الطباع، وكل شيء يقدر على إصلاحه غير الخلق السوء، وكل شيء يستطاع دفعه إلا القضاء.

وقال: الجهل والحمق للنفس بمنزلة الجوع والعطش للبدن؛ لأن هذين خلاء النفس وهذين خلاء البدن.

وقال: أحمد الأشياء عند أهل السماء والأرض لسان صادق ناطق بالعدل والحكمة والحق في الجماعة.

وقال: أدحض الناس حجة من شهد على نفسه بدحوض حجته.

وقال: من كان دينه السلامة والرحمة والكف عن الأذى فدينه دين الله عز وجل وخصمه له شاهد بفلج الحجة، ومن كان دينه الإهلاك والفظاظة والأذى فدينه دين الشيطان وهو بدحوض حجته شاهد على نفسه.

وقال: الملوك تحتمل الأشياء كلها إلا ثلاثة: قدح في الملك وإفشاء للسر وتعرض للحرمة.

وقال: لا تكن أيها الإنسان كالصبي إذا جاع ضغا، ولا كالعبد إذا شبع طغى، ولا كالجاهل إذا ملك بغى.

وقال: لاتشيرن على عدو ولا صديق إلا بالنصيحة، وأما الصديق فيقضي بذلك من واجبه حقه، وأما العدو فإنه إذا عرف نصيحتك إياه هابك وحسدك وإن صح عقله استحى منك وراجعك.

وقال: يدل على غريزة الجود السماحة عند العسرة، وعلى غريزة الورع الصدق عند الشرَّة، وعلى غريزة الحلم العفو عند الغضب.

وقال: من سره مودة الناس له ومعونتهم إياه وحسن القول منهم فيه حقيق بأن يكون على مثل ذلك لهم.

وقال: لا يستطيع أحد أن يحوز الخير والحكمة، ولا أن يخلص نفسه من المعائب، إلا



أن يكون له ثلاثة أشياء: وزير، وولي، وصديق؛ فوزيره عقله ووليه عفته وصديقه عمله الصالح.

وقال: كل إنسان موكل بإصلاح قدر باع من الأرض فإنه إذا أصلح قدر ذلك الباع صلحت له أموره كلها وإذا أضاعه أضاع الجميع، وقَدْرُ ذَلِكَ نَفْسُه.

وقال: لا يمدح بكمال العقل من لا يكمل عفته، ولا بكمال العلم من لا يكمل عقله.

وقال: من أفضل أعمال العلماء ثلاثة أشياء: أن يبدلوا العدو صديقا، والجاهل عالما، والفاجر برًّا.

وقال: الصالح مَن خيرُه خيرٌ لكل أحد، ومَن يَعُدُّ خيرَ كل أحدٍ لنفسِه خيرًا.

وقال: ليس بحكمة ما لم يُعاد الجهل، ولا بنور ما لم يمحق الظلمة، ولا بطيب ما لم يدفع



النتن، ولا بصدق ما لم يدحض الكذب، ولا بصالح ما لم يخالف الطالح"[1].

وسوف نجد عددًا من أقوال هرمس الواردة هنا، مما ورد عند المبشّر بن فاتك في "مختار الحكم ومحاسن الكلم". وشخصية هرمس هنا واحدة، لكن الشهرستاني يذكر في بداية حديثه – بصيغة تمريض – أنه إدريس النبي:

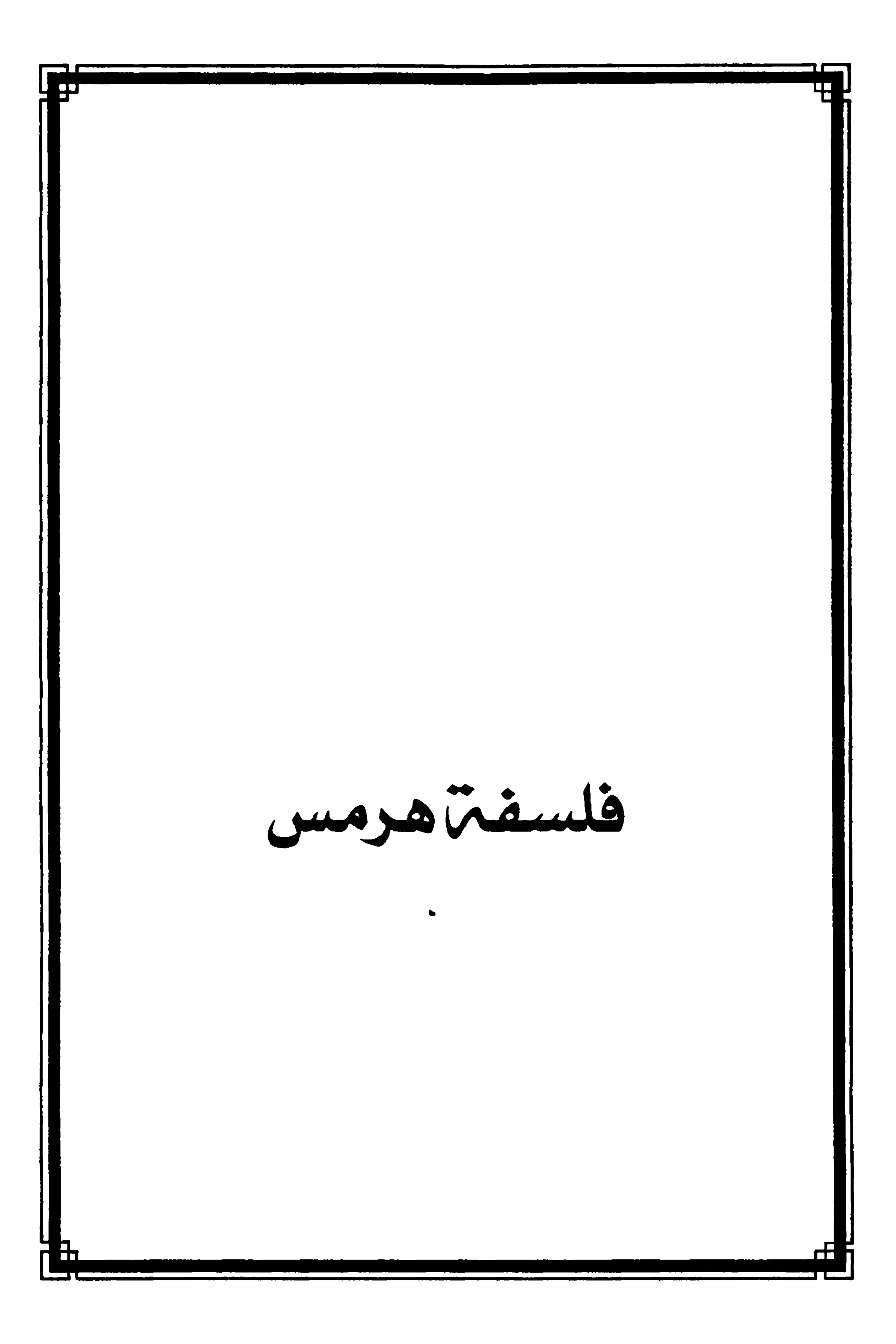
"حكم هرمس العظيم المحمودة آثاره المرضية أقواله وأفعاله، الذي يعد من الأنبياء الكبار ويقال هو إدريس النبي عليه السلام. وهو الذي وضع أسامي البروج والكواكب السيارة ورتبها في بيوتها وأثبت لها الشرف والوبال والأوج والحضيض والمناظر بالتثليث والتسديس والتربيع، والمقابلة والمقارنة والرجعة والاستقامة، وبيّن تعديل الكواكب وتقويمها. وأما الأحكام المنسوبة إلى هذه الاتصالات فغير مبرهن عليها عند الجميع.

وللهند والعرب طريقة أخرى في الأحكام أخذوها من خواص الكواكب لا من طبائعها ورتبوها على الثوابت لا على السيارات.

---

(١) الشهرستاني: كتاب الملل والنحل – ليبزج ١٩٢٨ :٢٤٠ – ٢٤٤.

ويقـال إن عـاذيمون وهـرمس همـا شـيث وإدريـس علـيهما السلام، ونقلت الفلاسفة عـن عـاذيمون أنـه قـال المبـادئ الأوَل خمسة: الباري تعالى، والعقل، والنفس، والمكان، والخلاء، وبعـدها وجود المركبات، ولم ينقل هذا عن هرمس.



فلسفة هرمس

عرفت الثقافة العربية تيارات فلسفية مختلفة، وتأثر الفكر الفلسفي في الإسلام بما نُقل إلى اللغة العربية من تراث فلسفي يوناني وهندي وفارسي.

ويرى علي سامي النشار[1] أن لدى الإسلاميين نزعة عامة تُقرر أن الفلسفة اليونانية في نشأتها إنما صدرت عن روح ديني. وعبّر الإسلاميون عن هذه النزعة بأن الفلاسفة الأوائل إنما استمعوا من "مشكاة النبوّة" أو بأن هذا أو ذاك من هؤلاء الفلاسفة الأوائل قد تتلمذ على نبي من أنبياء الكتب المقدسة. بل إنهم يجعلون نبيا من الأنبياء فيلسوفا كبيرًا، وهذا ما دعا مؤرخي الفلسفة اليونانية وأنصارها في العالم الإسلامي أن يطلقوا فلسفة وأقوالاً فلسفية على لسان إدريس أو هرمس أو بمعنى أدق: أن تنسب إلى إدريس النبي أقوال أمونيوس ساكاس. بل إن المبشر بن فاتك ـ أول مؤرخ للفلسفة اليونانية عند الإسلاميين ـ يبدأ كتابه "مختار الحكم ومحاسن الكلم" بأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم منها "الحكمة ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها، ولا يبالي من أي

---

(١) علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام - الطبعة التاسعة - دار المعارف - القاهرة ١٩٩٥ - ١: ١١٢، ١١٣.

وعاء خرجت"، ويرى أن من هـذه الحكمـة المـذكورة في الحـديث "آداب الحكماء اليونانيين ومـواعظ العلـماء المتقـدمين"، ثـم يـورد المبشر بن فاتك في كتابه آراء النبي شـيث "واسـمه عنـد اليونـانيين أوراني الأول ـ وهو أول من أخذوا عنه الشريعة والحكمة".

لذلك لا يمكن فهـم الفلـسفة العربيـة إلا في ضـوء المنظومـة المعرفية الإسلامية التي تنطلق من النص القرآني؛ لما لـه مـن مكانـة مركزية في كـل العلـوم والمعـارف عنـد المـسلمين وفي حـضارتهم. والقرآن ليس كتاب فلسفة، والنبي صلى الله عليه وسلم هو رسول الله، يبلّغ رسالته ويذكّر بالحقائق فيما يتعلق بـالله وصـلته بالإنـسان وفيما يتعلق بالحياة الدنيا وفي الآخرة. ويورد القـرآن قصَـصًا قـديما ويمزج بين الوعد والوعيد ويقدّم شريعـة سـماوية تـضمن للنـاس النجاة. ولكـن القـرآن يـضم إلى جانـب الحقـائق الدينيـة عنـاصر فلسفية وأقوالاً تقدّم مادة للتأمل. وفيما يتعلق بالله والخلق والكون والإنسان والقدَر وتنظيم الجماعة الإنسانية، نجد إشـاراته إلى هـذه الأمور دقيقة بحيث تقود اختيـار المفكـر في اتجـاه محـدد وواضـح. والفلـسفة وعلـم الكـلام والتـصوف لا يمكـن أن تعـارض هـذه الأحكام القرآنية الجوهريـة. وتـؤدي تلـك العلـوم إلى البحـث في

العــدل الإلهــي Theodicy وإلى علــم خــاص بالإنــسان Anthropology وعلم بـأحوال المعـاد Eschatology وأخـيرا إلى فلسفة للطبيعة[1]".

والقول بالعدل الإلهي يتضمن القول بـأن الله ذات مخـصوصة Personal being حي، موجود، باق، قادر عـلى كـل شيء، أحـد، خالق السموات والأرض، رحيم، "وهو بكل شيء عليم"(سـورة الحديد: ٣)، وإرادته خلاقة "وإذا قـضى أمـرا فـإنما يقـول لـه كـن فيكـون"(سـورة البقـرة: ١١٧)، وهـو منـزّه: "لـيس كمثلـه شيء"(سورة الشورى: ١١). ومع ذلك فهـو قريـب لمـن يـدعوه. وهو الإله العادل الذي سيحاسب الإنسان. وعلم الإنسان القرآني يتضمن القول بأن الإنسان جسمًا وروحًا مخلوق صادر عن القـدرة الإلهية مباشرة، وأن آدم وحـواء عـصيا الله، ولكـن هـذه الخطيئـة الأولى Original Sin لم تنتقل إلى ذريتهما و"كل نفـس بـما كـسبت رهينة" (سورة المدّثر: ٣٨). وقد خُلق الإنـسان ليـسبّح بحمـد الله

---

(١) جورج شحاته قنـواتي: "الفلـسفة وعلـم الكـلام والتـصوف"، ضـمن كتاب: تراث الإسلام – الجزء الثاني – الطبعـة الثانيـة – عـالم المعرفـة ٢٣٤- الكويت ١٩٩٨: ٤٤.

وحده ويعبد خالقه ويعظمه ويطيعه. ووضع الله الإنسان في مركـز الكون حتى يكون لـه عليـه سـلطان ولكـي يكـون المتـصرف بـه. والإنسان المسلم في حقيقته مسلم لإرادة الله. والذي يميزه هو على التحديد هيمنة الله الكاملة عـلى جميـع سـلوكه. وهـذا يـستلزم أن تكون كل حياته حتى أدق ما فيها مرتبطة بالله تعالى. فالمسلم إنسان يعيش تحت نظر الله، والجماعة الإسلامية تشكّل مجتمعـا تحتـل فيـه فكرة الله مكانة مركزية Theocentric Society. وتتضمن أحـوال المعاد القول بأن الإنسان في هذه الحياة الدنيا ما هو إلا عـابر سـبيل وأن مصيره إلى العالم الآخر، والموت بيد الله وهو لا بد آت بحسب الأجل المحدد له، وسوف يبلى الجسد ولكنه سيبعث حيا فيـنعم في جنات الخلد أو يعذب في نار جهنم. وأخيرا هناك فلـسفة للطبيعـة وردت بشكل ضمني وهي فلسفة تَردّ الأمور كلهـا إلى الله بمعنـى أن الله وإن كان منزها تماما عن ملابسة الطبيعة Transendent فإنه فاعل في صميم نظام الخليقة، ويجب أن يُرَدّ إليه دائما كل ما يحـدث فيها. وفلسفة الطبيعة في الإسلام فلسفة غائية Finalistic، بمعنـى أن الطبيعة خُلقت بحكمة، فهناك اطراد وانتظام في قوانينها، لكـن ذلك لا يمنع الحرية الكاملة لـلإرادة الإلهيـة مـن التـدخل في هـذا النظام. وأخيرًا فإن هذه الفلسفة تجعل الإنسان مدار نظام الطبيعة،

فالطبيعة مُسَخّرة للإنسان. وتلك الفلسفة تتناول عـددًا معيّنـا مـن الموضوعات[1].

ويلاحظ جورج قنواتي أن الفلسفة العربية تنزع إلى أن تكـون "حكمة"، فكان الفارابي وابن سينا وابـن رشـد مقتنعـين بوحـدة المعرفـة التـي تقـف عـلى قمتهـا الإلهيـات. وأخـيرًا فـإن الفلـسفة الإسلامية تُبدي ولعا بمسألة المعرفة (Oewpia) وأسسها المتعلقـة بالنفس والوجود؛ ففي الرسائل التي كتبها الكندي والفارابي وابن سينا حول العقـل تحليـل دقيـق ومفـصّل لقـوى الـنفس المختلفـة والمراحل التي يجب أن تمر بها، بما في ذلك طهارة الخُلُق حتى تـصل إلى الاتحاد مع مصدر الموجودات كلها[2]. وهذا مـا دعـا الفلاسـفة الإسلاميين إلى التمسك بالرأي الرواقي القـديم: أن الـسعادة هـي المطلوبـة لـذاتها وأن الإنـسان يكـدح لطلبهـا وهـي لا تنـال إلا بالحكمة. وكذلك بالرأي الرواقـي المـسيحي: أن غايـة الحكـيم أن يتجلى لعقله كل الكون ويتشبه بالإله الحق[3].

---

(١) جورج شحاته قنواتي: مرجع سابق: ٥١.

(٢) جورج شحاته قنواتي: مرجع سابق: ٥٣.

(٣) علي سامي النشار: مرجع سابق ـ ١: ١١٣.

وربما كان "أرسطو" (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م)، ثم "أفلوطين" (٢٠٥ – ٢٧٠م) أهم فيلسوفين يونانيين لهما تأثير بارز في الفلسفة الإسلامية، على الرغم من الاختلاف الكبير بين مذهبيهما؛ ففلسفة أرسطو تقوم على الوجود ونظرية أرسطو في الميتافيزيقا، في مقالة اللام، أن الله موجود وأنه المحرّك الذي لا يتحرّك، أما فلسفة أفلوطين فتقوم على الواحد، ونظرية أفلوطين والأفلاطونية المحدثة Neoplatonism جعلت الله هو الواحد ومن الواحد فاض العقل الأول ثم النفس الكلية ثم الهيولى.

ويقول أحمد فؤاد الأهواني: "مهما يكن من شيء فإن براعة العرب في التوفيق استطاعت أن تلائم بين هذين الأساسين، فأدمجت ميتافيزيقا الوجود مع ميتافيزيقا الواحد، وخرجوا من ذلك بفلسفة جديدة تجمع بينهما، مما يُعدُّ ابتكارًا أصيلاً في الفلسفة الإسلامية"[1].

وقد نقل المسلمون مؤلفات لأفلوطين إلى العربية ونسبوها خطأ لأرسطو لأنهم لم يعرفوا أفلوطين (وكان الشهرستاني يسميه

---

(١) أحمد فؤاد الأهواني: الفلسفة الإسلامية – دار القلم – القاهرة ١٩٦٢: ٥٨، ١٢٠، ١٢١.

"الشيخ اليوناني")؛ فكانت - كما يقول عبد الرحمن بدوي – "غلطة سعيدة felix culpa".

ومما وصل إلينا من الكتابات الهرمسية باللغة العربية كتاب "معاذلة النفس" المنسوب لهرمس المثلث العظمات، وقد نشره عبد الرحمن بدوي في كتابه "الأفلاطونية المحدثة عند العرب". وسوف نتوقف عند هذا النص الهرمسي الذي كان له كبير الأثر في الفكر الفلسفي الإسلامي خصوصًا عند أهل التصوف.

١ – كتاب معاذلة النفس

هرمس

يقع كتاب "معاذلة النفس" - ويسمى أحيانًا: زجر النفس – في ٦٤ صفحة من القطع الكبير، وقام بتحقيقه ونشره عبد الرحمن بدوي مع نصوص أخرى، في كتابه "الأفلاطونيّة المحدثة عند العرب". ويذكر عبد الرحمن بدوي أنه كتاب منحول، ويرجّح أنه من العهد الهلّيني المتأخر، أي قبل الإسلام، فيما بين القرنين الثالث والخامس الميلاديين، وأنه أثر من آثار الهرمسية التي غزت الفكر

اليوناني المتأخر؛ وأنه "يدخل في باب الأدب الهرمسي littérature hermétique الذي انتشر انتشارًا هائلاً وبغير أسماء أصحابه، بل نسب إلى هرمس، وهو اسم مجهول غامض، وذلك في فترة انحلال الفكر القديم"[1].

وكتاب معاذلة النفس يقع في أربعة عشر فصلاً متقاربة الأحجام (خمس صفحات لكل فصل تقريبًا)، ويبدأ كل فصل بالنداء: "يا نفس!". وكل فصل يتشكَّل من عدد من الفقرات يبدأ أكثرها بالنداء عينه: "يا نفس!".

فالكتاب ـ أو الرسالة ـ خطاب موجّه إلى النفس، من أول كلمة إلى آخر كلمة، ولأن النفس مؤنثة فدائمًا يتلو النداءَ فعل أمر متصل بياء المخاطبة: (تمثَّلِي، تصوَّري، اعلمي، تيقَّني، تأمَّلي، انفصلي، انهضي)، أو مضارع مسبوق بلام الأمر: (لتكن)، أو مسبوق بلا الناهية: (لا تذمّي، لا تخرج بكِ، لا تقتري)،.

وأحيانًا يتلوه استفهام: (متى ؟، حتى متى وإلى متى؟، أليس ؟، كيف ؟، ما ؟، كم ؟)، أو شرط: (إن كرهْتِ العقاب فاتقي

---

(١) عبد الرحمن بدوي: الأفلاطونية المحدثة عند العرب – وكالة المطبوعات – الكويت ١٩٧٧: ٤٢.

الزلل، من غرس طيبًا أكل طيبًا)، أو تعجُّب: (ما أعظمَ.. وما أشدَّ)، أو جملة اسمية مؤكَّدة بإِنَّ، وأحيانًا بغير أداة التوكيد.

ونورد هنا الفصل الأول من كتاب "معاذلة النفس" لنتبين أسلوب الكاتب، والمضامين الفلسفية التي انطوى عليها هذا الفصل، والمبادئ والتصورات التي صدر عنها الكتاب في سائر فصوله هكذا:

"يا نفس ! تمثلي وتصوري ما أنا مورده لك من المعاني العقلية الموجودة وجودًا دائمًا. فما تصورتِهِ فقد عقلتِهِ واقتنيتِه وتيقنتِه كتيقنك أن الحي جنسٌ لنوع الإنسان، وأن المتنفس جنس لنوع الحي، وأن الجسم جنس لنوع المتنفس، وأن الجوهر الأقصى جنس لنوع الجسم؛ وكتيقنكِ أيضًا أن المستوِي غير المعوجّ، وأن الكل أعظم من الجزء، وأن الماء يروي من العطش وأنه بارد رطب بالطبع، وأن النار تحرق وتنضج وأنها حارة يابسة بالطبع – وكسائر ما قد عقلته وشاهدتِه وشافهتِهِ في عالم العقل وعالم الحس، وما خفي عنكِ يانفس مما أنا مُبيِّنُه لك،

فاستعملي فيه التمثل العقلي المتقن الصحيح البريء من الاختلاط والاختلاف، فإنه سيدلّكِ ظاهر ما شاهدتِه على باطن ما خفي عنكِ، كما استدل الناظر إلى الصورة الممثلة في الحائط على وجود المصور لتلك الصورة الممثلة، وكما استدل بما عاين من حركات يده على سرائر تخطيطها وتشكيلها على لطائف ما كان قائمًا في فكره ونفسه من جملة ذلك، يا نفس: فإنه قد يستعمل التمثيل على سائر الأشياء بالآثار الموجودة عند غيبة المؤثرين لها، وأيضًا قد يستعمل التمثيل له في الاعتبار والتعجب مما قد ورد ومما هو وارد لا محالة بضروب الأمثال على غائب الأشياء وشاهدها. فاستعملي، يا نفس، التصور والتمثل في سائر الأشياء الموجودة عقلاً وحسًا. واعلمي أن الشيء الذاتي بالحقيقة الأصلي التام النوريّ هو المفيد الحكم اللطيفة والتمييزات الشريفة والحياة الدائمة وسائر الأشياء التي هي جزئيات له لا أجزاء، وهو كليٌّ لها لا كلاً. فاعتبري ذلك يا نفس وتيقظي

واحذري الغفلة والتواني، واستعملي التهذب من أوساخ الطبيعة؛ واستعيني على ذلك بالخضوع والرغبة والابتهال إلى ينبوع الخير ومظهره، وأصل العقل ومبدعه، ومفيد الحياة والحكمة والجود التام والرحمة، تحيي بذلك يا نفس وتسعدي.

يا نفس ! إن مبدع الأشياء ومبدئَها ومنشئَها - جل جلاله وتقدست أسماؤه - صنعكِ وأبدعكِ وجعلكِ ذات التصوُّر والتمثُّل: فأما التصور فتصوركِ الشيء على حقيقة ما أبدعه مبدعه؛ وأما التمثل فتمثلك ما خفي عنك معناه من عالم العقل بما شاهدتِه في عالم الحس، مثلاً بمثل، ومعنى بمعنى، كما أنْ تدلّ ذات الصورة المطبوعة في الشمع على معناها وحقيقتها في الطابع، وكما تدلّ الصورة الممثلة في الطابع على معنى حقيقتها في نفس ممثلها ومصوّرها؛ وكما يؤثر الماء في الرمل والطين معاني حركاته وتموُّجه.

فاكتفي مني يا نفس بحقيقة ما قد أوردته لكِ، واعلمي أن جميع ما أنت مشاهدة له في عالم الكون والفساد من الصور والصنع إنما هي تمثيلات وتشكيلات معان هي في عالم العقل بالحقيقة غير زائلة ولا بائدة. وما في العالم الروحاني فملاحظته بالمشاهدة العقلية. فيجب على كل روحاني وجسماني عند بلوغه الكون الجزئي أن يتيقن بالعقل أنه حقيقة غير زائلة. وإنما يصور العقل ذاته لذاته في الهيولى، ثم ينظر بذاته إلى معاني ذاته وصورها فيلتذ بذلك إعجابًا منه بذاته، إذ اللذة العقلية هي مما يناله العقل من ذاته بذاته لا بشيء خارج عنه، ولا بعرض عارض بل من ذاته لذاته. وهذه هي اللذة الحق الدائمة الأبدية.

يا نفس! تيقَّني واقتني معرفة الأشياء بآنياتها وماهياتها، ولا تحتفلي بمعرفة كيفياتها وكمياتها، لأن المطلبين الأوَّلَيْنِ بسيطان أزليان ولا وسيط بين النفس وبينهما، وأن المطلبَيْن

الآخـرَيْن مركبـان زائـلان زمانيـان مكانيـان. واعلمي يا نفس أن علم التركيـب لـن ينفـصل معـكِ مجـردًا محمـولاً في ذاتـكِ عنـد مفارقتـكِ الحـس. فخـذي علـم البسيط، وذري علـم المركّب.

يا نفـس ! هـذا جِـرْم الأرض هـو أثقـل الأشياء كلها وذلك لرسوِّه تحت سائر الأشـياء وطَفْوِ سائر الأشياء كلها عليـه. ولـذلك صـار هـذا الجـرم في الغايـة القـصوى مـن الكثافـة والجلافـة والانحـصار والكـزازة وعـدم النـور والحياة. ثم يتلو هذا الجرم من الأشياء جرم الماء وهو ألطف من الأرض وأصفى وأشرف وأنور وأقرب إلى الحياة. ثم يتلو جِرْمَ الماء جِرْمُ الهواء، وهو ألطف من الماء. ثم جـرم النـار الـذي هـو ألطف العناصر الأربعة وأشرفها وأشدّها نورًا. ثم يتلو جرمَ النار جرمُ الفَلَك الذي هو صفو ما تحته والمخصوص بالشرف على سـائر الأجـرام

للطافته وإشفافه وشدة أنـواره وحُسْن نظامـه وترتيبـه وقربـه مـن الحيـاة ومجاورتـه الأشـياء الـشريفة الحيـة العاقلـة، وأنـه متـشكّل بـسيد الأشكال وأتمّهـا وأصـحّها الـذي هـو الـشكل الكُرِّيّ المدوَّر، وأن سائر ما يحتوي عليه متشكل بشكله كرة دون كرة على الترتيب الـذي ينتهـي إلى كرة الأرض. ثم التالي لجِرم الفلك الذي هو أقصى الأجرام كلها هو جـوهر الـنفس المعطيـة الأفـلاك الحركـةَ النظاميـة والأنـوار الـصافية الشريفة التي هي ألطف من سائر ما أحاطت به من الأشياء واحتوت عليه. وذلك أن سـائر مـا تحتوي عليه أجسام وهـي لا جـسم البتـة، وأن سائر الأشياء مما دونها لا حياة له إلا بهـا، وأنهـا ذات الفكـر والإرادة والتمييـز: فـما واصـلَتْهُ أظهرَتْ فيه ذاتها على حقيقة قبوله فـصار حيًّـا، وما لم تواصـلْه لم يوجـد لـه فكـر ولا إرادة ولا حركة ولا تمييز. وما فقد شيئًا من هذه الأشـياء

فهو ميت لا محالة. والشيء التالي لجوهر النفس والعالي عليها والمحيط بها هو العقل. وبحقٍّ إنه ألطف الموجودات وأشرفها وأعلاها منزلةً، وإنه المرتب تحت أفق الأزلي تبارك وتعالى والآخذ عنه بغير وسيط، والمفيد جميع ما تحته الشرف والنور والحياة، وأنه الترجمان الأعظم والحاجب الأقرب.

فتأمَّلي، يا نفس، هذا الترتيب وتيقنيه واعتقديه فإنه هيئة الموجودات ونظامها وترتيبها"[1].

نلاحظ - بسهولة - كثافة ورود مصطلحات فلسفية شاعت في كتب الفلسفة الإسلامية؛ من مثل: التصور، التمثل، الجوهر، العرض، الصورة، الحركات، عالم الكون والفساد، الجزء، الكل، الحس، الهيولى، البسيط، المركب، المجرد، المحمول، العناصر الأربعة، الزمان، المكان الجسم، النفس، العالم، الفلك، الأزل، النور.

---

(١) كتاب معاذلة النفس لهرمس - ضمن كتاب: الأفلاطونية المحدثة عند العرب: ٥٤ - ٥٨.

لكن فكرة التراتب في الكون وصدور الكائنات عن الله الذي منه فاض العقل الأول ثم النفس الكلية ثم الهيولى؛ هذه الفكرة الفلسفية نجدها في الكتابات الفلسفية العربية؛ فقد قال بها أبو نصر الفارابي (ت ٣٣٩ هـ)، وعند إخوان الصفا (القرن الرابع الهجري)، كما نجد لها تأثيرًا كبيرًا في التصوف العقلي أو الفلسفي خصوصًا عند السهروردي المقتول.

٩ - كتاب التلويحات اللوحية والعرشية للسهروردي

في "كتاب التلويحات اللوحية والعرشية" للسهروردي (ت ٥٨٧ هـ)، وفي باب بعنوان "مرصاد عرشيّ" - وفيه فصول - يرد النص التالي، وهو فصل صغير يذكر فيه اسم "هرمس" رمزًا للنفس الكاملة:

"فصل: قام هرمس يصلي ليلة عند شمس في هيكل النور، فلما انشق عمود الصبح فرأى أرضًا تخسف بقُرًى غضب الله عليها

> فتهوي هُوِيًّا، فقال: يا أبي نحّني عن ساحة جيران سوء، فنودي أن اعتصم بحبل الشعاع واطلع إلى شرفات الكرسي، فطلع فإذا تحت قدمه أرض وسموات"[1].

ويذكر الشارح في حاشية الكتاب أن المراد بهرمس: النفس الكاملة الشريفة، وبالصلاة: التوجه إلى ذلك العالم، وليلة عند شمس: ليلة حضور مقصود النفس من الرياضة والسلوك، وبانشقاق عمود الصبح: ظهور النفس عن البدن لورود الأنوار الإلهية والبوارق القدسية عليها.

وفي فصل آخر من الباب نفسه - في كتاب "التلويحات" - يقول السهروردي:

> "فصل: اعلم رحمك الله أنه لما انتهى كلامنا إلى ههنا وحان وقت قتصار فجدير بنا حسن توصية: لا تضيع عمرك فإنك لن تجده بعد فواته، اصبر صبر الرجال ولا تعود نفسك

---

(١) مجموعة مصنفات شيخ إشراق - بتصحيح ومقدمة هنري كربين - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة ٢٠٠٠ - ١: ١٠٨.

بـأخلاق ربـات الحجـال، واعلـم أن الحكـماء
الكبار منـذ كانـت الحكمـة خطابيـة في الزمـان
السابق مثـل والـد الحكـماء أب الآبـاء هـرمس
وقبلـه أغاثـاذيمون وأيـضًا مثـل فيثـاغورس
انباذاقلس وعظيم الحكمة أفلاطون كانوا أعظم
قدرًا وأجلّ شأنًا من كـل مـبرِّز في البرهانيـات
نعرفه من الإسـلاميين، ولا يغرَّنـك استرسـال
هؤلاء مع فيثاغورس، فـإن هـؤلاء القـوم وإن
فصّلوا ودقّقوا عـلى كثـير مـن خفيـات سرايـر
الأولين سيما الأنبياء مـنهم، والاختلافـات إنـما
وقعت في التفاصيل، وأكثـر كـلام القـوم عـلى
الرموز تجاوزات فليس من الواجب الرد عليها،
وقد اتفق الكل على ما ينبغي في الآخرة من علم
الواحد الحق ومـا يليـه مـن العقـول والنفـوس
والمعاد للسعداء، فعليك بالرياضة والانقطـاع!
لعلك تنال مما نالوا، وقد حكى الإلهي أفلاطون
عن نفسه فقال ما معناه: (إني ربما خلوت بنفسي
وخلعت بدني جانبًا وسرت كأني مجرد بلا بـدن

عريّ عن الملابس الطبيعية بريّ عن الهيولى، فأكون داخلاً في ذاتي خارجًا عن ساير الأشياء فأرى في نفسي من الحسن والبهاء والسناء والضياء والمحاسن العجيبة الأنيقة ما أبقى متعجبًا فاعلم أني جزء من أجزاء العالم الأعلى الشريف) في كلام طويل، وحكى المعلم الأول عن نفسه هذه الأنوار العظيمة، وقد اتفق كلهم على أن من قدر على خلع جسده ورفض حواسه صعد إلى العالم الأعلى، واتفقوا على أن هرمس صعد بنفسه إلى العالم الأعلى وغيره من أصحاب المعارج، ولا يكون الإنسان من الحكماء ما لم يحصل له ملكة خلع البدن والترقي، فلا يلتفت إلى هؤلاء المتشبهة بالفلاسفة المخبتين الماديين، فإن الأمر أعظم مما قالوا، وطرايق هؤلاء منها خفية لشرفها وعظمتها ومنها ظاهرة"[1].

---

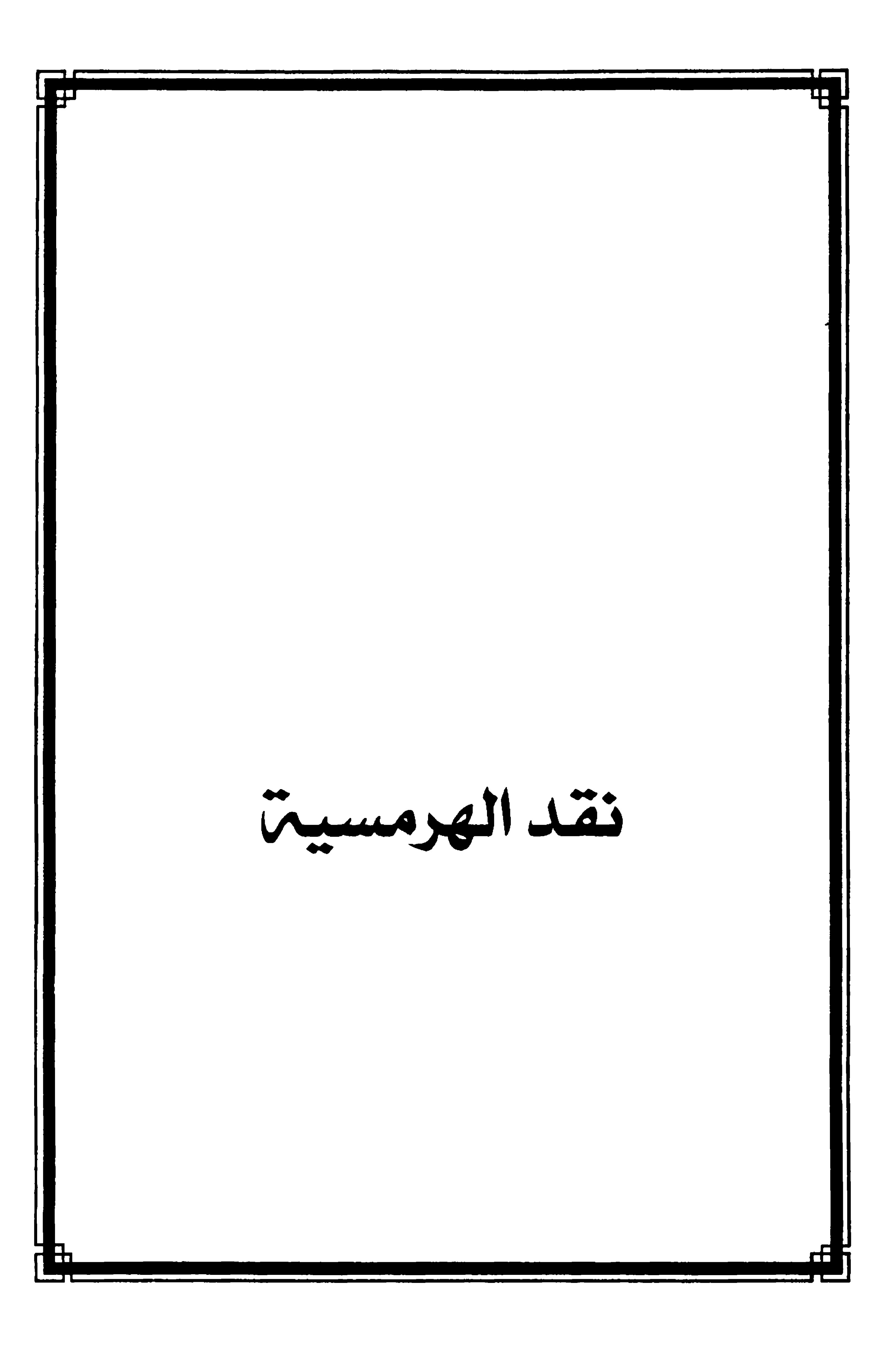
(١) مجموعة مصنفات شيخ إشراق – بتصحيح ومقدمة هنري كربين – الهيئة

وهذا النص بالغ الأهمية، لأنه - فضلاً عن ذكر هرمس- يحتوي على كثير من المصطلحات والمفاهيم الفلسفية التي وردت في الفصل الأول من كتاب "معاذلة النفس" لهرمس. ويكشف لنا هذا كيف أن فكرة الفيض والصدور استتبعت بالضرورة فكرة المعاد والمعراج التي ألح عليها السهروردي، ومن بعده محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠م)؛ "لكن المصير إلى الله فيها لا يمكن أن يكون مجرد العود البسيط لما ذهب وانتهى؛ فالكائنات لا تعود القهقرى، ولا تقفل راجعة على ذات الخطوات التي جاءت بها، وإنما ترجع بها (استدارة) الخلاء الروحاني وهي تتحرك فيه صوب النقطة التي بدأت منها السير"(١).

لكن ابن عربي يذكر في كتاباته "إدريس" عليه السلام - بدلاً من هرمس الذي ورد هنا عند السهروردي – إذ يعالج ابن عربي في عدد من كتبه – منها: "الفتوحات المكية"، و"رسالة الأنوار"، و"فصوص الحكم" – موضوع "معراج الأولياء".

العامة لقصور الثقافة – القاهرة ٢٠٠٠ – ١: ١١١ – ١١٣.

(١) علي شود كيفيتش: الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي – ترجمه من الفرنسية وقدم له أحمد الطيب – دار الشروق – القاهرة ٢٠٠٤: ٢٠٩.



نقد الهرمسية

في العصر الحديث استؤنفت الدراسات حول هرمس والهرمسية كواحدة من تيارات الفكر الفلسفي التي انتشرت في العصر الهيلليني وفي العصور الوسطى. وبدأت مرحلة جديدة من المراجعة والمساءلة لهذا التراث الإنساني الذي عبّر عن مرحلة حضارية سابقة.

ففي دراسته لعلم الفلك عند العرب ذكر المستشرق الإيطالي كرلو نلينو أن "هرمس حكيم مصري خُرافي لم يكن له وجود أبدًا. فكثرت فيه الخرافات بين العرب في عهد الإسلام... وهو اسم إله من آلهة اليونان زعم المصريون منذ عهد الإسكندر أنه نفس الإله تحوت (Thot) الذي نسبت إليه قدماء المصريين اختراع كل علم"[1].

وفي فكرنا العربي الحديث جاءت محاولات المشتغلين بالفلسفة والتأريخ لها، لتكشف عن حقيقة الهرمسية ولتزيح الستار عن الوجه الحقيقي لشخصية هرمس وما نُسبَ إليه من تراث علمي وأدبي وفلسفي، حاولنا في الفصول السابقة أن نتعرف على بعض نصوصه.

---

(١) كرلو نلينو: علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة د.ت، مصورة عن طبعة روما ١٩١٥.

وسوف نتوقف هنا عند اثنين من مفكرينا المشتغلين بالفلسفة وبتاريخ الفكر، ومن المهتمين خصوصًا بتاريخ الفكر العربي وبالتيارات الفلسفة التي زخرت بها مؤلفات العرب في العصور الوسطى. فنبدأ بدراسة تحليلية لعبد الرحمن بدوي عن هرمس وصورته في الفكر العربي القديم. ثم نتوقف عند الدراسة النقدية الهامة للمفكر المغربي محمد عابد الجابري في نقد الهرمسية في التراث العربي القديم.

١ – صورة هرمس في الفكر العربي لعبد الرحمن بدوي

هرمس هو الاسم الذي أطلقه اليونان على الإله المصري تحوت، لمّا أن اتصلوا بمصر منذ عهد مبكر أسبق من عهد هيرودوتس، أو من أيامه فقد تحدث عن معبد لهرمس (٢: ١٣٨). والإله تحوت عند المصريين كان من مناقبه أنه يحسب عدد السنين والزمان، ويقدّر لكل إنسان مقدار أجله، ولذا كان يعد سيد المصير، وأنه الذي اخترع الكتابة كما أبدع كل ما يتوقف عليها من علوم وصناعات، على

رأسـها الـسحر والطـب والفلـك والتنجـيم والصنعة، ثم ما لبث أن ارتفعت ألوهيته فصار ذا دور بـارز في الكونيـات التـي أنـشأها كهنـة هرموبوليس التي عُدَّ ربها. فأصبح إلهـا عظـيما عنه يصدر الخير، وعُدّ بمثابـة قلـب رع وسـيد الزمان وسلطان السنين، وهو قديم، حق، وكل ما ينبثق من قلبه يتـصف بـصفة الوجـود، ومـا ينطق به يستمر أبدا.

وهرمس عند اليونان له من الصفات مـا يقرّبه كثيرا من تحوت مما يسّر لليونانيين عمليـة التمثيل هذه: فهو طبيب، يعرف مزايـا الـسحر لطب الأدواء، وهو رسول الآلهة، وبالتـالي هـو المترجم عن الكلمة الإلهية، حتـى إن أفلاطـون قد لـذّ لـه أن يـشتق هـذا الاسـم مـن اللفـظ: ερμηνευς أي الترجمـــــان (محـــــاورة "أقراطيلوس"، ٤٠٧ هـ وما يتلوها) مع مـا في هذا مـن تعـسف ظـاهر وعبـث، بيـد أن هـذا العبث كان له أثره الكبير من بعد. فهيكـاتيوس من أبديرا يَنسب إليه اختراع الألفاظ والكتابـة

والعبادة الإلهية والفلك والموسيقى والألعاب وحسن الإيقاع. وعند الرواقيين أن هرمس هو اللوغوس أو الكلمة. ثم يصبح هو اللغة نفسها، لأنه الرسول، واللغة هي الرسول بين العقول. وفي هذا كله نشاهد الشبه البارز الذي سرعان ما جعل اليونانيين يقولون إن تحوت المصري هو هرمس اليوناني.

ولقد كان لليونانيين ولع شديد بهذه الهويات بين آلهتهم والآلهة الأجنبية. والظاهرة عينها نراها تتكرر في الفكر العربي الإسلامي، لكن مع الأنبياء بطبيعة الحال، ما دام التوحيد هنا لا مجال فيه لشيء مما كان يفعله اليونان: أعني أن البحث عن الهويات سيكون بين الأنبياء الذين يعترف بهم الإسلام وبين الآلهة الأجنبية ذوات التأثير والمكانة في الأذهان والأقطار العربية. وكان الوسيط لهذا في بعض الأحيان هو الإسرائيليات: الصحيح منها والمنحول.

والنبي الذي وجد فيه المفكرون العرب ما يشبه هرمس هو إدريس. وإدريس كما ورد في القرآن لا يُصوَّر إلا بما صُوِّر به في التوراة من أنه كان ورعا صالحا وأن الله رفعه إليه وأنه كان صابرا: "واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ۞ ورفعناه مكانا عليا"[1]؛ "وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ۞ وأدخلناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين"[2]. ولا يرد في القرآن، كما في التوراة، مقدار سنه، إذ ورد في التوراة أنه عاش ٣٦٥ سنة على الأرض، مما يدل على أنه بطل شمسي. لكننا نجد إلى جانب هذه الصورة القرآنية - التوراتية لإدريس، صورة أخرى في قصص الأنبياء لدى المؤرخين[3]. فيُذكر أن إدريس كان

---

(١) سورة مريم: ٥٧ وما يليها.

(٢) سورة الأنبياء ٨٥ وما يليها.

(٣) الطبري: تاريخ الطبري، ١: ١٧٢ وما يليها؛ اليعقوبي: ١: ٨- ٩، ١٦٦؛ ابن الأثير: ١: ٤٤؛ الدياربكري: "تاريخ الخميس"، ص ٦٦؛ أبو

إدريس كان "أول من خط بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، وأول من نظر في علم النجوم والحساب" كما يقول الثعلبي[1].

والقفطي يفيض في هذا المعنى، خصوصاً وهو يتحدث عن إدريس على أنه هو هرمس، فقال: "وأقام إدريس ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلى الأمز بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله عزّ وجل، وتكلم الناس في أيامه باثنين وسبعين لسانا، وعلمه الله عز وجل منطقهم ليعلم كل فرقة منهم بلسانها، ورسم له تمدين المدن، وجمع له طالبي العلم بكل مدينة، فعرفهم السياسة المدنية وقرر لهم قواعدها، فبنت كل فرقة من الأمم مدناً في أرضها، وكانت عدة المدن التي أنشئت في زمانه مائة مدينة وثماني وثمانين مدينة، أصغرها الرها.

زيد: "البدء والتاريخ"، ٣: ١١ وما يليها، ثم الثعلبي: "عرائس المجالس"، ٥٠- ٥١.

(١) "عرائس المجالس"، ص ٥٠، المطبعة السعيدية بالقاهرة، بدون تاريخ.

وعلمهم العلوم... وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم، فإن الله عز وجل أفهمه سر الفلك وتركيبه ونقطة اجتماع الكواكب فيه وأفهمه عدد السنين والحساب. ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها إلى ذلك"[1].

ومن هذا يلوح أن ثمت مصدرين لصورة إدريس في الفكر العربي: إحداهما التوراة والقرآن؛ والأخرى الكتب التاريخية. ويشبه أن يكون المصدران معا هما اللذين أثرا في رجل كالثعلبي؛ لأنه جمع بينهما في صورة واحدة هي في نظره صورة دينية خالصة. فمن أين وردت الصورة الثانية وهي التي نراها خصوصاً عند القفطي في أكمل ما ترد؟

أكبر الظن أنها أخذت عن كتب الصنعة والكتب الفلسفية عامة ومنها انتقلت إلى المؤرخين. ذلك أن نفس الظاهرة التي وجدناها

---

(١) القفطي: "إخبار العلماء بأخبار الحكماء"، ص ٣، طبع مصر سنة ١٣٢٦ هـ = سنة ١٩٠٨م.

عند اليونانيين في اتصالهم بالمصريين قد تجددت عند العرب في تقبلهم للتراث اليوناني، فحاولوا أن يجدوا في هرمس ـ كما صورته الكتب الهرمسية، وقد انتشرت انتشاراً هائلاً في القرن الثالث وما تلاه ـ شخصية من أشخاص الأنبياء حتى يظفر بحق المواطن في دار الإسلام الروحية. وهنا يمكن المرء أن يتساءل: ولماذا لم يتم هذا إلاّ بالنسبة إلى هرمس وحده من بين بقية الآلهة الأجنبية؟ والجواب عن هذا ميسور واضح:

ذلك أن هرمس هو الإله الوحيد الذي كان ذا أثر ضخم في التطور الروحي والعلمي عند العرب، فلم يكن يعنيهم غيره من بين الآلهة كلهم. فمن الطبيعي خصوصاً وهو صاحب الوحي والنبوة فيما يتصل بالمصير والمقدور وطوالع الناس والأحوال الكونية الرئيسية ـ أن يهبوه صفة شرعية بحشره في زمرة الأنبياء المعترف بهم في الإسلام.

وهنا يرد سؤال آخر: لماذا لم يُختر إلا إدريس، مع أنه كما صوره القرآن والتوراة من قبل لا ينطبق على هرمس؟ والقطع في الجواب عن هذه المسألة غير ميسور إلاّ إذا عرفنا أن شيئاً من هذا قد تم من قبل في الكتب اليهودية المنحولة وغيرها مما يدخل في عداد الأدب الرباني rabbinique فيما يتصل بهرمس وواحد من أنبياء العهد القديم، خصوصاً أخنوخ، الذي تقول عنه الكتب الإسلامية إنه هو إدريس. وإذا لم يكن في وسعنا الآن ـ بما لدينا من وثائق ـ أن نقرر وقوع هذه الهوية بين هرمس وبين أخنوخ في الكتب اليهودية، بيد أننا نستطيع افتراض شيء من ذلك، وإلاّ لم نفهم المصدر في حدوث هذا في الكتب الإسلامية ـ اللهم إلاّ أن تكون الأخيرة هي التي فعلت كل هذه العملية: إدريس = أخنوخ = هرمس = تحوت.

وفي هـذا يمكـن أن نفـترض أسـباباً اشـتقاقية تعـسفية مثـل مـا ورد في "عـرائس المجـالس" للثعلبـي مـن أن إدريـس "سـمي إدريـس لكثـرة درسـه الكتـب وصـحف آدم وشيث"[1]. أعني من هذا أن المؤرخين وجـدوا أن اسـم إدريـس هـو أقـرب الأسـماء ـ لغويـاً واشتقاقياً ـ إلى أن يتخذ للدلالة عـلى مـن عنـي بالكتابـة والـدرس والـصحف واللغـة، وهـو هرمس.

وعلى كل حال فإن الأمر في إدريس نفسه مختلف فيه أشد الإختلاف: فنيلدكه قال إنه من المحتمـل أن يكـون "أندريـه"[2]. وهَـرْتمن رد عليه[3] قائلاً إن أندريه هـذا الـذي رفـع مكانـاً

---

(١) "عرائس المجالس"، ص ٥٠، القاهرة بدون تاريخ.

(٢) نيلدكه Nöldeke "مجلة الآشوريات" Zeitschrift für Assyr جـ١٧، ص ٨٤ وما يليها.

(٣) ر. هرتمن R. Hartmann "مجلة الآشـوريات"، جـ٢٤، ص ٣١٤ ومـا يليها.

علياً ما هو إلاّ طباخ الإسكندر، هذا الطباخ الذي ظفر بالخلود. كما أننا نجد في بعض المصادر الإسلامية ما يميل إلى القول بأنه هو إلياس أو الخضر.

دخل هرمس إذاً دار الإسلام الروحية على أنه إدريس (هل يكون هذا الاسم تحريفاً للفظ هرمس؟) وكان له أثر ضخم كشف عنه الأستاذ ماسينيون في بحثه بعنوان "ثبت المؤلفات الهرمسية العربية" الملحق بكتاب فستوجير عن "وحي هرمس المثلث بالعظمة"(١). فبيّن كيف أن الإعتراف بهرمس في نظر الكتاب العرب، وأغلبهم مسلمون، لا يعني اعتناق تلك العقيدة الوثنية التي كانت لا تزال قائمة في حرّان في مستهل القرن التاسع

---

(١) Le R. P. Festugière: La révélation d'Hermès Trismégiste app. 111: "Inventaire de la littérature hermétique arabe" par Louis Massignon. Paris, 1944.

وراجع هذا الكتاب إجمالا فيما يتصل بموضوعنا هذا.

الميلادي (الثالث الهجري) عند الصابئة الذين كانوا ينظرون إلى هرمس على أنه إله كل المخترعات المدنية. ويقول إن هرمس ـ إدريس لم يكن نبياً أوحي إليه بنص لا يتغير عن طريق ملك، شأن بقية الكتب المقدسة (التوراة والإنجيل والقرآن)، بل أتى ليعلم الناس بإلهام (في مقابل "الوحي"، وهو التنزيل غير المباشر بواسطة ملك) كيف ينظمون المدن والأمصار وينشئون الصنائع... وكان أول المسلمين الذين اعتنقوا أو آمنوا بالهرمسيات هم من الشيعة الذين يرون أن التاريخ دوري... ولقد استعان المشتغلون بالدراسات المتصلة بالتراث الهليني بهرمس ـ إدريس ليجدوا لهذا التراث حق التوطن في دار الإسلام، بينما كان المنطق وما بعد الطبيعة عند أرسطو غير معترف بهما بعد".
كذلك استعان به الزنادقة من ذوي النزعة المانوية والصابئة كيما يدرأ عنهم الاضطهادات التي استهدفوا لها في ذلك العهد (القرون الثاني

والثالث والرابع للهجرة)؛ ثم كان لهرمس أثره خصوصاً في الصناعات المتصلة بالفلك مثل الإسطرلابات والأنابيق.

لكن سرعان ما قام رد فعل ضد نفوذ الآراء الهرمسية، وبخاصة ما اتصل منها بعلم التنجيم والسحر والطلسمات. لهذا جاء أتباع هرمس من بعد فحاولوا أن يؤكدوا الجانب الديني في هرمس. فمما يرويه السرخسي عن أستاذه الكندي "أنه نظر في كتاب يُقِرُّ به هؤلاء القوم (الصابئة)، وهو مقالات لهرمس في التوحيد، كتبها لابنه، على غاية من التقانة في التوحيد، لا يجد الفيلسوف إذا أتعب نفسه مندوحة عنها والقول بها"[1]. ثم ما لبث أن انتقل تأثيره إلى الصوفية عن طريق ذي النون المصري (المتوفى سنة ٢٤٥ هـ = سنة ٨٥٩ م) خصوصاً في فكرة استخدام "الروح" في مقابل "العقل"، في إدراك المسائل الإلهية.

---

(١) "الفهرست" لابن النديم، ص ٤٤٤ ـ ص ٤٤٥، القاهرة بدون تاريخ.

تلك خلاصة ما يقوله الأستاذ ماسينيون في استهلال بحثه الذي أشرنا إليه. ونحن نلاحظ أولاً أن قوله بأن هرمس - إدريس لم يكن معدوداً عند العرب من الأنبياء ذوي الوحي المنزل يمكن أن يعترض عليه بما يورده المؤرخون والمفسرون من أن الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة"[1]. ثم خصوصاً بما يرد من أخبار خاصة بالسّرَب وباللوح الذي من زبرجد أخضر، وهو الذي فيه "صنعة الطبيعة"، ثم بالكتاب الذي فيه "سرّ الخليقة وعلم علل الأشياء"[2]، مما هو وارد في نصوصنا التي ننشرها هنا. وهذه المسألة مهمة، لأنها تبين لنا التغيير الذي طرأ على صورة هرمس في الحضارة العربية. ففكرة السّرَب هي التي تدل على الرمز الأوّلي لروح

---

(١) "تفسير" الفخر الرازي، جـ٥، ص ٥٦٦، القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ = سنة ١٨٩٠م.

(٢) راجع النصوص بعد، رقم ١ ورقم ٢.

الحضارة العربية، إذ السَّرَب هو الكهف الذي وفقاً له تتصور هذه الروحُ المكانَ، وهو بعينه السرداب الذي يختفي فيه الإمام المستور عند الشيعة. واللوح هو بمثابة اللوح المحفوظ؛ وما إلى هذا من أفكار دينية تنبع من صميم الروح العربية والساميّة. والكتاب هو بمثابة الكتاب المقدس المُسْتَمْلى في أصله من اللوح (المحفوظ).

ففي هذه الأفكار الثلاث إذاً: السرب، اللوح، الكتاب ـ نشاهد خير معبّر عن روح الحضارة العربية؛ كما نلحظ التغيير الذي على صورة هرمس من المصريين إلى اليونانيين ثم إلى الحضارة العربية في مظاهرها: الهلينية، والكلدانية، والعربية. وفي النصوص التي نقدّمها هنا، والتي وجدت كلها في العربية، خير تعبير عن هذه المظاهر الثلاثة.

فالنص رقم ١ يمثل الصورة الهلّينية hellénistique لهرمس. وهو ـ بحسب ما يرد

في آخره ـ مأخوذ من كتاب "الاسطماخس".
وهذا الكتاب مما ينسب إلى هرمس[1]. ويوجد منه فقرات طويلة في كتاب "المجموع المبارك" للمكين (مخطوطة باريس برقم ٤٥٢٤ ورقة ٤ أ، ١٣٦ أ، الخ) وفي "غاية الحكيم" المنسوب إلى المجريطي (نشرة رتر، جـ١ ص ٢٣٣، ص ٢٤٢) وفي مخطوطة باريس برقم ٢٥٧٧ ("كتاب علل الروحانيات")، كما أشار إلى ذلك ماسينيون في مقاله المذكور آنفاً[2].

والمهم في هذا النص خصوصاً فكرة الطباع التام وروحانية الفيلسوف، وهي الفكرة التي أشرنا من قبل إلى أهميتها وما سيكون لها من أثر خطير في الفكر الإسلامي العربي. وهي هنا لاتزال لابسة ثوباً وثنياً، إذ لا حديث في هذا النص عن اللوح والكتاب، بينما نجد في النص رقم ٢ الذي يمثل المظهر العربي لصورة

---

(١) ابن النديم: الفهرست ص ٤٩٦ س ١٢، طبع مصر.

(٢) الكتاب السابق ص ٣٩٤.

هرمس أن اللوح والكتاب هما من أهم ما عُني به المؤلف في ذكر قصة هرمس أو هرمس بلنياس. وإنما اقتصر نص "الاسطماخس" على فكرة "السرب" لأنها أساسية في تصور الروح العربية. هذا فضلا عن استبعاد التنزيل الإلهي في نصنا الأول، لتلك النزعة الوثنية عينها، وردّ الأمر إلى طباع تام هو بمثابة الملقّن للفيلسوف الحكمة بطريق إنساني، وهو ظاهر خصوصا في كيفية دعوة هذا الطباع التام: فهي تتم بواسطة أدعية وتحضيرات سحرية.

أما النص رقم ٢ فمأخوذ من كتاب "سر الخليقة وسُنّة الطبيعة" المنسوب إلى بلنياس، وأكبر الظن أنه أُلِّف في عهد المأمون (المتوفى سنة ٢١٨ = سنة ٩٣٣م)، ألفه أحد المسلمين ونسبه إلى بلنياس الطواني، وقد نشرنا هنا استهلاله ثم خاتمته لأنهما يتصلان بصورة هرمس. أما الكتاب نفسه فقد درسه كراوس دراسة وافية في الجزء الثاني من كتاب "جابر بن

حيان"[1]، فنكتفي بالإحالة إليه. ومن الملاحظ هنا فيما يتصل بالنص الذي أوردناه أن بلنياس هو هرمس كما يستبين من مقارنة هذا النص بالنص رقم ١.

وفي النص رقم ٣ نشاهد الرواية نفسها، منسوبة هذه المرة إلى أفلاطون. وهذا التطور في نسبة الصورة نفسها من هرمس إلى بلنياس إلى أفلاطون، ثم إلى أرسطو كما في نهاية نص "الاسطماخس" حيث ورد أن الكتاب لأرسطو ـ ويلوح أن نسبته إلى أرسطو قديمة، إذ نراها عند موسى بن ميمون[2] – نقول إن لهذا التطور دلالته في محاولة الفكر العربي تمثلَ هؤلاء الأشخاص حتى يصبحوا جميعا جزءا من كيانه.

---

(١) ص ٢٧٠ – ص ٣٠٣، القاهرة سنة ١٩٤٣. Paul Kraus: Jabir ibn Hayyan

(٢) اشفولزون: "الصابئة"، جـ١، ص ١٧٥، سنة ١٨٥٦. Chwolsohn: Ssabier

والنص الرابع يمثل الصورة الكلدانية، أعني الصابئة، لهرمس، فيقول لنا إنه نبي الكلدانيين واسمه "ذواناي، وتفسير ذواناي: مخلّص البشر"، وإنه هو هرمس الثاني، أما هرمس الأول فكان في الألْف الثانية بينما هرمس الثاني في الألْف الثالثة، والألْف الأولى كان فيها آدم. ففي هذا التاريخ الدوري يقوم على كل دور "نبي ملك عالم مستخرج مبتدع لصنائع وعلوم كثيرة". وفي هذا صورة التاريخ كما تراه الروح العربية. وهنا في هذا النص نجد بعضا من المزج بين الأفكار الشرقية الكلدانية وبين الأفكار المسيحية، أو على الأقل وجه الشبه بينهما قوي بارز للعينين.

تلك هي الملامح الإجمالية العامة لصورة هرمس في تطورها حتى الفكر العربي، وفيها تبدّى في الوقت نفسه المميزاتُ البارزة للروح العربية، وبخاصة ما يتصل منها بالنزعة الإنسانية.

٢ - تكوين العقل العربي

لمحمد عابد الجابري

وفي دراسته الضخمة بعنوان "نقد العقل العربي"، وفي جزئها الأول "تكوين العقل العربي"، كتب المفكر المغربي محمد عابد الجابري نقدًا تحليليًا إبستمولوجيًّا للهرمسية، وهي - حسب تصنيفه للمعارف والعلوم في الثقافة العربية الإسلامية إلى ثلاث مجموعات: علوم البيان، وعلوم العرفان، وعلوم البرهان - تقع ضمن مجموعة "علوم العرفان" التي تضم: التصوف والفكر الشيعي والفلسفة الإسماعيلية والتفسير الباطني للقرآن والفلسفة الإشراقية والكيمياء والتطبيب والسحر والطلسمات وعلم التنجيم. ويرى الجابري أن المادة المعرفية للعرفان تنتمي إلى الموروث العرفاني القديم السابق على الإسلام، والهرمسي خاصةً؛ إذ الرؤية السحرية هي المضمون الأول والأخير للعرفان، تلك الرؤية السحرية للعالم التي تكرّسها الأسطورة، والتي تفضي إلى تأليه ذاته[1].

---

(١) راجع : محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية – دار الثقافة الجديدة – القاهرة ١٩٨٩: ١٤٥، ١٥١.

وفيما يلي ما كتبه الجابري تحت عنوان "العقل المستقيل في الموروث القديم" ضمن كتابه "تكوين العقل العربي":

"إن الانطلاق في فحص طبقات الموروث القديم في الثقافة العربية من الصورة التي تقدمها لنا عنه المؤلفات العربية القديمة قد جعلنا أمام أمشاج من الآراء الفلسفية والدينية لا نجد لها مكانًا في التاريخ "الرسمي" للفلسفة السائد اليوم. وهذا ليس راجعاً إلى أن تلك الأمشاج خالية تماماً من كل ما يثير اهتمام الفيلسوف ومؤرخ الفلسفة، بل لأن تاريخ الفلسفة "الرسمي" المعاصر تحكمه "المركزية الأوروبية"، وبالتالي فهو لا يهتم إلا بالطريق الذي سلكته الفلسفة من بلاد اليونان موطنها الأصلي إلى روما وأوروبا العصور الوسطى ثم أوروبا الحديثة. أما الطريق الذي سلكته الفلسفة من أثينا إلى الشرق، خلال فتوحات الإسكندر وبعدها إلى أن استقرت في بغداد عاصمة العباسيين، فهو لا يهتم بها. وإذا مر

مرور الكرام بمدرسة الإسكندرية في القرن الثالث الميلادي فليشير فقط إلى أن أفلوطين (٢٠٥م _ ٢٧٠م) درس بها، على شخص يحيط به الغموض اسمه أمونيوس ساكاس، قبل أن يرحل إلى روما حيث أقام هناك مدرسته المشهورة التي ستستأثر وحدها باسم "الأفلاطونية المحدثة".

هكذا يغيب عن المسرح، مسرح تاريخ الفلسفة "الرسمي"، الطريق الآخر الذي سلكته الفلسفة، أثناء فتوحات الإسكندر وبعدها، نحو الشرق. والنتيجة تجاهل إسكندرية ما قبل وما بعد أفلوطين وما تفرع عنها من مدارس أخرى كمدارس فلسطين، وتجاهل أنطاكية وامتداداتها كمركز ثقافي خصب شمل إشعاعه سورية كلها، وتجاهل المدارس "الشرقية" الأخرى في العراق وفارس وخراسان. وبعبارة أخرى إن ما هو غائب في هذا التاريخ "الرسمي" للفلسفة هو بالضبط ما

نحن في حاجة إليه هنا، هو تاريخ المراكز الثقافية في كل من مصر وفلسطين وسورية والعراق وإيران، هذه المراكز التي احتضنت العلم والفلسفة "اليونانيين" مدة تزيد على عشرة قرون، ما بين موت الإسكندر سنة ٣٢٣ ق. م وعصر التدوين في الاسلام (القرن الثامن الميلادي).

نعم، يبرز كثير من المستشرقين دور المدارس السريانية في أنطاكية ونصيبين وحران (بشمال سورية والعراق) وجنديسابور (جنوب فارس) في نقل الفلسفة والعلوم اليونانية إلى العربية. وبعضهم يريد أن يلتمس لهذه المدارس تأثيرًا في النواحي الثقافية الأخرى في الإسلام كعلم الكلام مثلاً. ومع تقديرنا، التقدير الكامل، للدور الذي قام به أساتذة هذه المدارس السريانية وتلامذتها في حركة الترجمة في الإسلام، فإننا مع ذلك لا نجد فيها، أو على الأقل فيما يقدّم لنا عنها، ما يلبي حاجتنا. فلقد

"كان ما يعلم في تلك المدارس ذا صبغة دينية غالباً ومتصلاً بالنصوص المقدسة، وكان موجهاً بحيث يواتي حاجة الكنيسة". لقد كانت هذه المدارس مشغولة بتحديد العلاقة بين اللاهوت والناسوت في ذات المسيح، والنزاع كان أساساً بين اليعاقبة الذين أكدوا على وحدته فجعلوا منه إلهًا وبين النسطوريين الذين أثبتوا له خصائص بشرية في الوجود والإرادة والفعل مميزين بينها وبين ما فيه من عنصر إلهي. وقد استعان "المتكلمون" المسيحيون بالمنطق الأرسطي في معالجة هذه المشكلة الدينية. وغني عن البيان القول إن هذه المناقشات كانت تشكل أو تنتج ما يمكن التعبير عنه بـ "المعقول" الديني للمسيحية الشرقية، وهو يقع بعيدًا عن تيارات اللامعقول "العقلي" التي تهمنا هنا أصولها وفصولها، تلك التيارات التي تحدث عنها الشهرستاني باسم آراء "الروحانيين من الصابئة" من جهة،

وباسم فلسفة "الحكماء السبعة" من جهة أخرى.

نعم هناك مدرسة حران التي لم يَتنصّر أهلها والتي احتفظت بسبب ذلك بالطابع اليوناني الوثني، مع عناية خاصة بالعلوم الفلكية التي انتقلت إليها من بابل مع ما يرتبط بها من عبادة الكواكب والاشتغال بالتنجيم والسحر. وتزداد أهمية حران بالنسبة لموضوعنا لكونها كانت مقرًا للصابئة الذين تشكل فلسفتهم الدينية الهرمسية أحد التيارين الرئيسيين في قطاع اللامعقول في الموروث القديم، هذين التيارين اللذين نريد التعرف على مصادرهما وتاريخ تشكلهما والنظام المعرفي الذي يؤسسهما.

نعم لقد قام الحرانيون بدور كبير في حركة النقل والترجمة في الإسلام وبكيفية خاصة في مرحلتها الثانية، فنقلوا كثيرًا من

تراث مدرستهم العلمي والفلسفي إلى العربية بما في ذلك بعض المؤلفات الهرمسية. غير أن معلوماتنا الراهنة عن مدرسة حران لا تسعفنا كثيرًا في موضوعنا، فكل ما نعرفه عنها أنها اشتهرت منذ أوائل الميلاد، وأنها قد عنيت بالعلوم الكلدانية إلى جانب عنايتها بتيارات من الفلسفة اليونانية. وأهم حدث علمي يرتبط اسمه بحران هو انتقال "مجلس التعليم" (= الكتب والأساتذة) إليها في خلافة المتوكل التي دامت من سنة ٢٣٢هـ إلى ٢٤٧هـ. وكان "مجلس التعليم" هذا قد استقر قبل ذلك لمدة مائة وأربعين سنة في أنطاكية التي كان قد انتقل إليها من الإسكندرية أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز أي ما بين سنة ٩٩ هـ وسنة ١٠١ هـ. ونحن نعرف أن هذا "المجلس" لم يدم مقامه طويلاً في حران إذ انتقل إلى بغداد في خلافة المعتضد التي دامت من سنة ٢٧٩هـ إلى سنة ٢٨٩هـ "وعلى هذا لم تستمر الدراسة في حران

أكثر من أربعين سنة"، وهي فترة تقع كما قلنا ما بين خلافة المتوكل وخلافة المعتضد. وبما أن الأدبيات الهرمسية كانت قد انتشرت في الثقافة العربية الإسلامية قبل هذا التاريخ، فإن مدرسة حران، أو على الأقل "مجلس التعليم" الذي انتقل اليها، لا يمكن أن يكون المصدر الوحيد للهرمسية في الإسلام، فلابد أن يكون هناك مصدر أو مصادر أخرى سابقة. وبما أن موطن الهرمسية الأصلي هو الإسكندرية، فإننا نرجح أن يكون انتقال الأدبيات الهرمسية إلى الثقافة العربية الإسلامية قد تم على مرحلتين: في المرحلة الأولى كان المصدر هو الإسكندرية نفسها ولربما أيضًا بعض فروعها في فلسطين. أما في المرحلة الثانية فلقد كانت مدرسة حران هي المصدر الأساسي. ومن دون شك فإن ما نقل من حران يرجع معظمه إلى مدرسة الإسكندرية التي كان مجلس تعليمها قد انتقل إليها.

يبقى بعد هذا ذلك الخليط من الآراء الفلسفية المنحولة لـ "الحكماء السبعة"، وفي مقدمتهم امبادوقليس المنحول الذي كان المصدر الخصب الذي غرفت منه التيارات الباطنية في الإسلام مشرقاً ومغرباً. ومع أن تلك الآراء الفلسفية المنحولة ذات النزعة الغنوصية الواضحة تلتقي في كثير من جوانبها الأساسية مع العناصر الرئيسية في الفلسفة الدينية الحرانية الهرمسية فإن كون الشهرستاني يعرضها على أنها تمثل رأي الفلاسفة "الأوائل"، تمييزًا لها عن فلسفة أرسطو وشراحه من جهة، وعلى أنها من جهة أخرى غير مرتبطة بآراء الروحانيين من الصابئة (= الهرمسية) التي عرضها عرضًا مستقلاً باعتبار أنها لا تدخل في "الفلسفة"، إن هذا وذاك يشيران إلى أن المصادر التي استقى منها الشهرستاني تلك الفلسفة المنحولة لـ "الحكماء السبعة" هي غير المصادر التي استقى منها آراء

الصابئة الحرانيين. وإذا رجعنا إلى ابن النديم والبيروني، وقد عاشا قبل الشهرستاني (الأول بنحو قرن ونصف والثاني بنحو قرن) فإننا سنجد لديهما ما يزكي هذا الفصل الذي أقامه الشهرستاني بين آراء الصابئة وحكمة "الحكماء السبعة"، فالحديث عندهما عن الصابئة ومعتقداتهم يَرِدُ منفصلاً عن الفلسفة والفلاسفة، مما يؤكد فعلاً أن الأمر يتعلق بمصدرين مختلفين.

هناك جانبان آخران يلفتان النظر في العرض الذي قدمه الشهرستاني عن الفلسفة والفلاسفة ويتصلان بموضوعنا. الجانب الأول يتمثل في إشارته إلى أن فلاسفة الاسلام قد أغفلوا ذكر "الحكماء السبعة" و "أهملوا ذكر مقالاتهم" مما يدل على وعيه التام بأن فلسفة هؤلاء الحكماء تختلف عن فلسفة فلاسفة الإسلام "الرسميين" (= الكندي، الفارابي، ابن سينا) الذين يقول عنهم إنهم "قد سلكوا

كلهم طريقة أرسطوطاليس في جميع ما ذهب إليه وانفرد به، سوى كلمات يسيرة ربما رأوا فيها رأي أفلاطون والمتقدمين"، أما الجانب الثاني الذي يلفت الانتباه في عرض الشهرستاني فهو تصنيفه لأفلوطين (= باسم "الشيخ اليوناني") ضمن الفلاسفة المتأخرين الذين يضع على رأسهم أرسطو والذين يضعهم جميعًا في الطرف المقابل لفلسفة "القدماء" فلسفة "الحكماء السبعة".

والواقع أن أفلوطين (٢٠٥م _ ٢٧٠م) غائب تماماً عن الفضاء الفلسفي في الإسلام.

هناك إذن مصادر لم تصل إلينا استقى منها الشهرستاني ما عرضه من الآراء الفلسفية المنسوبة إلى "الحكماء السبعة"، وفي وضعية كهذه لا يبقى أمامنا إلا طريق واحد للبحث عن أصولها وفصولها، وهو مقارنتها بما يمكن أن يكون مصدرًا لها، قريبًا أو بعيدًا. إن الارتباط الممكن إقامته في هذه الحالة هو

الارتباط البنيوي بين الأفكار وليس رد هذه الأفكار إلى أشخاص تربطهم علاقة التلمذة: بمعنى أننا لا نستطيع أن ننسبها لشخص أو أشخاص معينين، ولكننا نستطيع - إن وجدنا إلى ذلك سبيلاً - ربطها بهذا الفيلسوف أو ذاك، بهذا الاتجاه أو ذاك، على أساس القرابة البنيوية بين المذاهب. وإذا كنا نلح كل هذا الإلحاح على تحديد مصدر تلك الفلسفة المنحولة فلأنها لقيت رواجًا كبيرًا في الثقافة العربية الاسلامية وبكيفية خاصة لدى الاتجاهات الباطنية من إسماعيلية ومتصوفة. وبعبارة أخرى إن الأمر يتعلق أساسًا بالبحث عن أحد المصادر الرئيسية للامعقول "العقلي" في الفكر العربي الإسلامي، المصدر الذي شكل مع الهرمسية تيارًا قويًا في هذا الفكر منذ بداية عصر التدوين واستمر يحتل مواقع رئيسية داخله إلى أن اكتسح ساحته كلها تقريبًا في "عصر الانحطاط". إنه تاريخ ما يهمله "تاريخ

الفلاسفة في الإسلام" وما يسكت عنه تاريخ الفلسفة "الرسمي" الأوروباوي النزعة الذي يؤرخ لـ "العقل الأوروبي" وحده، تاريخ "اللامعقول العقلي" في الثقافة العربية الإسلامية.

فإلى أين سنتجه؟

من حسن حظنا أن أبحاثًا حديثة نسبيًا تنتمي "رسميًا"، في الثقافة الأوروبية، إلى "تاريخ الأديان"، تسعفنا ببعض الشيء فيما نحن بصدد البحث عنه، فضلاً عن أنها تلقي أضواء كاشفة على الحياة الفكرية في مركزين هامين من المراكز التي تشكلت فيها بعض طبقات الموروث القديم، وبالخصوص منها طبقات "اللامعقول العقلي" موضوع بحثنا، فهي تقدم لنا من جهة دراسة علمية وافية عن الهرمسية وتاريخ تشكلها ومضمونها الديني والفلسفي و"العلمي"، كما تضع أمامنا من جهة أخرى صورة واضحة عن الأفلاطونية

المحدثـة في صـيغتها المـشرقية التـي نقـرأ فيهـا بوضوح العناصر الأساسية للفلسفة المنحولة لـ "الحكماء السبعة" كما عرضها الشهرستاني.

لعل أحدث وأوفى دراسة عن الهرمـسية، هي تلك التي قام بها الباحث الفرنـسي المقتـدر فيـستوجيير الـذي حقـق النـصوص الهرمـسية وترجمها إلى الفرنسية.

يـــستعرض فيـــستوجيير العوامـــل الاجتماعيـة والتاريخيـة التـي أدت أو سـاعدت على تفكك العقلانيـة اليونانيـة وانحلالهـا مـع القرن الأول للميلاد، وفي مقدمة تلك العوامل التمزق الاجتماعي والنفسي الذي تـسببت فيـه الحروب المتوالية منـذ فتوحـات الإسـكندر في القـرن الرابـع قبـل المـيلاد إلى مـا بعـد قيـام الامبراطوريـة الرومانيـة في القـرن الأول قبـل المـيلاد. ومـع إبـرازه لهـذه العوامـل التاريخيـة الاجتماعية فإنه يؤكد بكيفية خاصة على التمزق الذي أصاب العقلانيـة اليونانيـة بعـد أرسـطو

مباشرة حيث تعددت المدارس الفلسفية المتناحرة، وظهر الشكاك وانتشرت أطروحاتهم مما جعل العقل اليوناني يبدو "وكأنه يلتهم نفسه". ويعزو فيستوجيير هذا الانفجار الداخلي للعقلانية اليونانية إلى اعتمادها على المنشآت الفكرية الاستنباطية دون اللجوء إلى التجربة، بله الاحتكام إليها. لقد أطلق العقل اليوناني العنان لنفسه محتقرًا التجربة مستنقصًا من المعرفة الحسية معتمدًا كل الاعتماد على ديالكتيكه الداخلي "فكان من الحتم أن تكون تلك القوة الديالكتيكية، التي كانت تتميز عند الإغريق بكيفية خاصة بالمرونة والدقة والنفاذ، والتي تولت التشييد، كان من الحتم أن تكون هي نفسها التي تتولى "تقويض البناء" الذي شيدته.

ويضيف فيستوجيير قائلاً: "هكذا قامت العقلانية الإغريقية، بعدما قوضت نفسها بنفسها، برد فعل مشؤوم ووجهت الناس إلى

اللا معقول، إلى شيء ما يقع، فوق العقل أو تحته أو خارجه على الأقل، يقع على مستوى الحدس الصوفي أو على مستوى الإشراق وأسراره أو على مستوى السحر وعجائبه، وأحيانًا اتجه الناس إلى هذه المستويات جميعًا. لقد تعب الناس من تلك الحجج التي لم تكن تصلح إلا في إظهار العقل بمظهر المتناقض المتهافت. وفي انتظار (= الحصول على مصدر للمعرفة مباشر ويقيني أي في انتظار "الكشف") كان لابد من العيش، لابد من إعطاء معنى للحياة، وبالتالي فإن ما كان الناس في حاجة إليه هو تعليمات تصدر إليهم، هو سلطة تطلب منهم الخضوع لها، هو الإيمان والتسليم. لم يعودوا يرغبون في البراهين فلقد كانوا يريدون ان يؤمنوا (...) لقد كانوا يبحثون عن الوحي والإلهام النبوي. ذلك لأنه لما كان الله هو وحده الذي يُحسن الكلام عن نفسه فإنه من الضروري توجيه السؤال إليه. ولا فرق بين

أن يجيبك شخصيًا بواسطة أحد العرافين أو يكلمك خلال رؤيا ينعم بها عليك، وبين أن تصدق برسله الذين كانوا على اتصال به في ماض سحيق والذين سجلوا في كتب مقدسة ما أخذوه منه، ومن هنا اتجهت الأنظار إلى بلاد الشرق، إلى "الشعوب التي ترى قبل غيرها إشراقة الشمس".

تتجلى هذه الميول اللاعقلانية، أولا وقبل كل شيء، وفي مجال الفلسفة بالذات، في الإقبال على بعث الفيثاغورية وتجديدها. ويقرر فيستوجيير "أن الإيمان بفيثاغورس كان يزداد بمقدار ما كان يتناقص سلطان العقل". ويفسر ذلك بأن ما كان يشكل قوة الفيثاغورية الجديدة هو أنها لم تكن فلسفة، أي منظومة من الأفكار المتكاملة المتناسقة حول الله والعالم والإنسان، فهي لم تكن تعتمد البرهان، وإنما كانت عبارة عن نظام كهنوتي يكرس الانقياد الأعمى لما يقوله كائن يأتيه الوحي والإلهام، لا يهتم بإقناع

الناس، بل يريد أن يسلموا له تسليماً. لقد كان على كل نقاش أن يتوقف بمجرد ما يرتفع صوت يفوه بتلك الكلمة التي كان لها فصل الخطاب، كلمة: "نطق المعلم فقال..". أما هذا "المعلم" فهو إما إله أو نبي أو ولي، وعلى كل حال فآيته الإتيان بالخوارق والكرامات، وبالتالي امتلاك للحقيقة".

لقد كانت الفيثاغورية الجديدة في جوهرها قراءة لأفلاطون بواسطة فيثاغورس، الشيء الذي يعني "تتويجه بتاج النبوة".

العودة إلى فيثاغورس وإلى من هم أقدم منه من الفلاسفة وأصحاب النبوة وأهل الحكمة العتيقة، ذلك هو الاتجاه الذي ساد القرن الثاني والثالث للميلاد في الامبراطورية الرومانية وبكيفية خاصة في جزئها الشرقي مصر - سوريا... إلخ.

والنتيجة هي ذلك التيار الفلسفي الديني الذي يحمل أمشاجًا من آراء فلاسفة ما قبل

سقراط معروضة عرضًا أفلاطونيًا دينيًا على الشكل الذي رأيناه عند الشهرستاني في حديثه عن الفلاسفة الأوائل "أساطين الحكمة" أو "الحكماء السبعة".

ففكرة الإله المتعالي والقول بالعنصر الأول ثم بالعقل الذي فيه صورة العالم، ثم بالأصل الإلهي للنفس وبالتطهير... كل تلك عناصر مشتركة أساسية نجدها منسوبة إلى الحكماء السبعة كلاً أو بعضًا وبالخصوص منهم إلى انبادوقليس، وهي نفس العناصر التي تأسس عليها أساس الفلسفة الإلهية وعرفانه المشرقي.

عندما مات الإسكندر سنة ٣٢٣ قبل الميلاد (أي قبل وفاة أستاذه أرسطو بسنة واحدة) اقتسم قواده امبراطوريته الشاسعة: فكانت بلاد اليونان ومقدونيا في يد القائد انتيجونس وعاصمته أثينا وكانت البلاد الآسيوية في يد القائد سلوقوس مؤسس دولة

السلوقيين وعاصمته أنطاكية، أما مصر فقد كانت من نصيب بطليموس وأسرته وعاصمتها الإسكندرية. وكما توزعت السلطة بين هذه العواصم الثلاثة فقد توزع الفكر اليوناني، علمًا وفلسفة، بينها أيضًا. غير أن نصيب الإسكندرية كان أكبر وأغنى.

فما هي الهرمسية، ما حقيقتها وما نوع الفلسفة والعلوم التي كانت تنشرها وما طبيعة النظام المعرفي الذي يؤسسها؟

الهرمسية نسبة إلى هرمس "المثلث بالحكمة" كما هو شائع في المؤلفات العربية أو "المثلث بالنبوة والحكمة والملك" كما ورد في كتاب المبشر بن فاتك.

وهرمس في الأصل اسم لأحد آلهة اليونان المرموقين عندهم. وقد طابقوا بينه وبين إله مصري قديم هو الإله طوط، كما طابق بعض اليهود بين هرمس طوط هذا وبين النبي موسى. أما في الميثولوجيا المصرية القديمة فقد

ظهر طوطا كاسم لكاتب الإله أوزيرس إله الدلتا المسؤول عن الموتى والمصير البشري. ومن وظيفة طوط كـ "كاتب" نسب إليه اختراع الكتابة، وبالتالي جميع الفنون والعلوم التي تعتمد الكتابة وتمارس في المعابد كالسحر والطب والتنجيم والعرافة. ثم ارتقى الإله طوط درجة في سلم الألوهية داخل الأساطير المصرية فنسب إليه خلق العالم بصوته لأنه كان مطلعًا على قوة تأثير الصوت والكلمة. وتقول الأساطير المصرية إن صوته يتكثف بنفسه فيصير مادة، ومن هنا كانت قوة طوط كامنة في صوته، أي في "النفخ" الصادر عنه، ومن هذا النفخ يخلق كل شيء، فهو إذن الإله الخالق والمعلم. هذا في الأساطير المصرية القديمة، أما في الأساطير اليونانية فلقد كان هرمس محترمًا عندهم إذ كان ابنًا للإله الأكبر زوس وقد نسبوا إليه هم أيضًا اختراع الكتابة والموسيقى والتنجيم والأوزان والمقادير... أما في الأدبيات

العربية الهرمسية فقد كان هرمس يقدم على أنه النبي إدريس المذكور في القرآن وأنه أول من علم الكتابة والصنعة والطب والتنجيم والسحر... إلخ.

أما الهرمسية كعلوم وفلسفة دينية فترجع إلى مجموعة من الكتب والرسائل تنسب إلى هرمس المثلث بالحكمة الناطق باسم الإله وأحيانًا يقدم على أنه هو نفسه إله، ولذلك كانت تعتبر تلك المؤلفات وحيًا إلهيًا. غير أن البحث العلمي الحديث (= دراسة فيستوجيير خاصة) أثبتت بما لا يقبل الشك أن تلك المؤلفات ترجع في جملتها إلى القرنين الثاني والثالث للميلاد، وأنها كتبت في الإسكندرية من طرف أساتذة يونانيين، أو من طرف أساتذة قبطيين يعرفون اليونانية، وأنها مستمدة في جانبها الفلسفي الديني من الفيثاغورية الجديدة والأفلاطونية المحدثة وفي جانبها العلمي (= التنجيم خاصة) مما انتقل إلى مصر من العلوم

الكلدانية عندما كانت تحت السيطرة الفارسية. أما الكيمياء الهرمسية فهي مزيج من الكيمياء النظرية اليونانية وفن صناعة الذهب المصرية. هذا بالإضافة إلى تأثرها بالزراديشتية والعلوم السحرية المجوسية التي كانت منتشرة في مصر، إذ يقدر بعض المؤلفين حجم الأدبيات الزراديشتية في مصر عام ٢٠٠ ق.م بنحو مليوني سطر.

والآن ما هو مضمون التعاليم الهرمسية، مضمونها الفلسفي الديني خاصة؟

تقدم لنا الهرمسية نظرية كونية بسيطة: "ففي قمة الكون وفوق سماء النجوم الثابتة يقيم إله متعال، لا يقبل الوصف، منزه لا تدركه العقول ولا الأبصار، مالك العالم. وإزاءه توجد المادة غير المتعينة، وهي مبدأ الفوضى والشر وميدان النجاسة والقذارة. أما العالم السماوي وكل ما يشتمل عليه وكذلك

الإنسان فقد تولى صنعه الإله الصانع القابل للمعرفة والإدراك، وذلك بتكليف من الإله المتعالي. هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن عالم ما تحت فلك القمر خاضع كله لتأثير الكواكب السبعة وأفلاك البروج. ومن هنا توزع البشر إلى سبعة أصناف يخضع كل صنف منها لخصائص برج من البروج الفلكية السبعة. والإنسان مؤلف من جسم مادي، أي غير طاهر، يسكنه الشر ويلابسه الموت، ومن نفس تشتمل على جزء شريف ينحدر من العقل الكلي. هذه النفس الشريفة - بل هذا الجزء الشريف من النفس - يعيش في صراع دائم مع الرغبات والأهواء التي سببها وجود الجسم. ولجعل حد لهذا الصراع جاء الإله هرمس، الوسيط بين الإله المتعالي والإنسان بتوسط العقل الكلي ليعلن الخلاص ويبين طريق النجاة. غير أن أقلية من الحكماء والأصفياء هي

وحدها التي تستطيع أن تتحمل إشراقة العقل (= الكلي) الهادي إلى طريق المعرفة الحق، طريق اندماج النفس في الله (= الفناء باصطلاح متصوفة الاسلام). وهؤلاء الحكماء الحقيقيون، المطهرون المقدسون المجتنبون لكل نقص، هم وحدهم الذين يتحررون من المادة ويفلتون من قبضة القدر (= الضرورة) فتصعد نفوسهم الناجية إلى السماء بينما تندمج أجسامهم، بعد الموت، مع جسم كوكب من الكواكب. وقد ترتقي النفس في معراجها إلى السماء الثامنة (= السماء العليا) محفوفة بجوقة من الملائكة حراس الأجواء العليا. ذلك هو مصير الحكماء، أما النفوس غير المطهرة فإن الزوابع الجوية تلقي بها في سحيق جهنم"، وتشاهد النفس في معراجها هذا كائنات روحية عديدة، ملاك الحياة، ملاك المادة، ملاك الفرح، ملاك الراحة، ملاك الخوف، الإله المنزه من الرغبات الذي

ذكره أفلاطون في محاورة فادن وطيماوس والإله الأورفي (نسبة إلى النحلة الأورفية) كما تشاهد "البرزخ الذي يقول عنه الرواقيون والمنجمون إنه يفصل العالم السماوي عن العالم الارضي".

واضح من هذا الملخص، الذي نقرأ فيه، رغم تركيزه كثيرًا من الأفكار التي راجت فيما بعد في الثقافة العربية الاسلامية، وفي أوساط المتصوفة والتيارات الباطنية خاصة، إن المسائل الرئيسية التي تعالجها الفلسفة الدينية الهرمسية تدور حول قضية الالوهية ونشوء العالم، وقضية النفس وخلاصها، وقضية وحدة الكون وتبادل التأثير بين أجزائه.

هذا باختصار عن مسألة الالوهية في الأدبيات الهرمسية. أما عن قضية النفس، أصلها وطبيعتها ومصيرها فهي مسألة يعنى بها بكيفية خاصة التيار المتشائم الذي يتبنى نظرية الإله المتعالي. إن أصحاب هذا الاتجاه إذ يقيمون فاصلاً لا نهائيًا بين الله والعالم وإذ

يؤكدون بالتالي أن الله لا تدركه العقول ولا الأبصار، يؤكدون من جهة أخرى أن الطريق إلى معرفة الله هي النفس لأنها جزء من الإله. إنها تستطيع معرفته حق المعرفة عندما تتمكن من الاتصال به والعودة إليه. أما العقل فهو في نظرهم إنما يستمد مدركاته من الأجسام وما في حكم الأجسام، والأجسام لا يمكن أن تؤدي بأية صورة من الصور إلى معرفة الله.

هذا الطريق، طريق معرفة الله بالنفس لا بالعقل، يقول به جميع الغنوصيين (= العرفانيين). غير أن ما يميز غنوصية الهرمسية هو تأكيدها على الأصل السماوي - الإلهي للنفس. والنصوص الهرمسية تشرح ذلك من وجهين: إما القول بأن النفس هي من أصل إلهي لكونها "بنت الله" حسب حرفية بعض النصوص، وإما القول بأنها عبارة عن مزيج، من عناصره "شي من الله نفسه". وتؤكد نصوص هرمسية أخرى أن الله لم يخلق من الإنسان إلا ذلك الجزء الذي هو من طبيعة

إلهية، أي النفس، والذي يحمل في ذاته صورة الله في الإنسان، وهذا هو المعنى الذي تعطيه هذه النصوص للعبارة الرائجة يومئذ والقائلة: "خلق الله الإنسان على صورته" بإعادة الضمير إلى الله.

النفوس البشرية كائنات إلهية، كانت تعيش في الأصل في العالم الإلهي، ثم ارتكبت ذنبًا فكان عقابها هبوطها إلى الأبدان سجنها. فكيف يمكن تخليص النفس والنجاة بها من الضياع في المادة وما يتبع ذلك من سوء المصير: سحيق جهنم؟

ليس هناك شيء يُخَلِّصُ النفس البشرية في نظر الأدبيات الهرمسية غير "المعرفة". ولكن أية "معرفة"؟ إنها تلك التي يرشد إليها هرمس الذي جاء يعلن الخلاص. وهذه المعرفة لا تعني "العلم"، أي اكتساب معارف، بل بذل مجهود متواصل قصد التطهير والتخلص من المادة والاندماج من جديد في العالم الإلهي، لا

بل الفناء في الله. إنه التصوف الهرمسي الذي نقرأ ملامحه واضحة في التصوف الاسلامي.

والواقع أن التصوف الهرمسي بنوعيه الانتشاري (= الاتحاد، الفناء) والانكفائي (= الحلول) ليس سوى مظهر من مظاهر هذه النظرة الواحدية إلى الكون ونتيجة من نتائجها. ذلك أن القول بالأصل الإلهي للنفس وهبوطها إلى البدن عقابًا لها، ثم القول بإمكانية عودتها إلى أصلها للاندماج في الله معناه القول بوجود قوة روحانية في العالم تسري فيه سريان النفس في الجسد. وإذا كانت هذه النظرة قد سادت العالم القديم كله بما في ذلك الفكر اليوناني في أوج عقلانيته، فإن الفرق كبير جدًا بين التوظيف العلمي الفلسفي لهذه الفكرة من طرف العقلانية اليونانية وبين التوظيف اللاعقلاني - السحري لنفس الفكرة.

وحدة الكون، الترابط بين أجزائه، تبادل التأثير بينها بالتجاذب والتنافر.. تلك هي



الأسس التي يقوم عليها التصور الهرمسي للكون والذي يؤسس في ذات الوقت العلوم "السرية" الهرمسية من كيمياء وتنجيم وسحر.

دمج العلم في الدين والدين في العلم علامة من العلامات البارزة التي يكشف فيها "العقل المستقيل" عن نفسه وهويته. إنه يطلب أن "يعقل عن الله" حتى تلك الأمور التي تركها الله للإنسان كي يعقلها مباشرة عن الطبيعة فيسخرها لمصلحته أو يتخذ منها دليلاً وهاديًا إلى إثبات وجود الله نفسه، هذا فضلاً عن تلك الأشياء التي قال فيها نبي الإسلام (ص): "أنتم أدرى بشؤون دنياكم". فلنتبع آثار ومواقع هذا "العقل المستقيل" في الثقافة العربية الإسلامية التي استشرى خطره فيها رغم الحديث المذكور، بل رغم كل ثقل "المعقول الديني" البياني العربي[1].

---

(١) محمد عابد الجابري: نقد العقل العربي (١)، تكوين العقل العربي – دار الطليعة – بيروت ١٩٨٤: ١٩٥ وما بعدها.

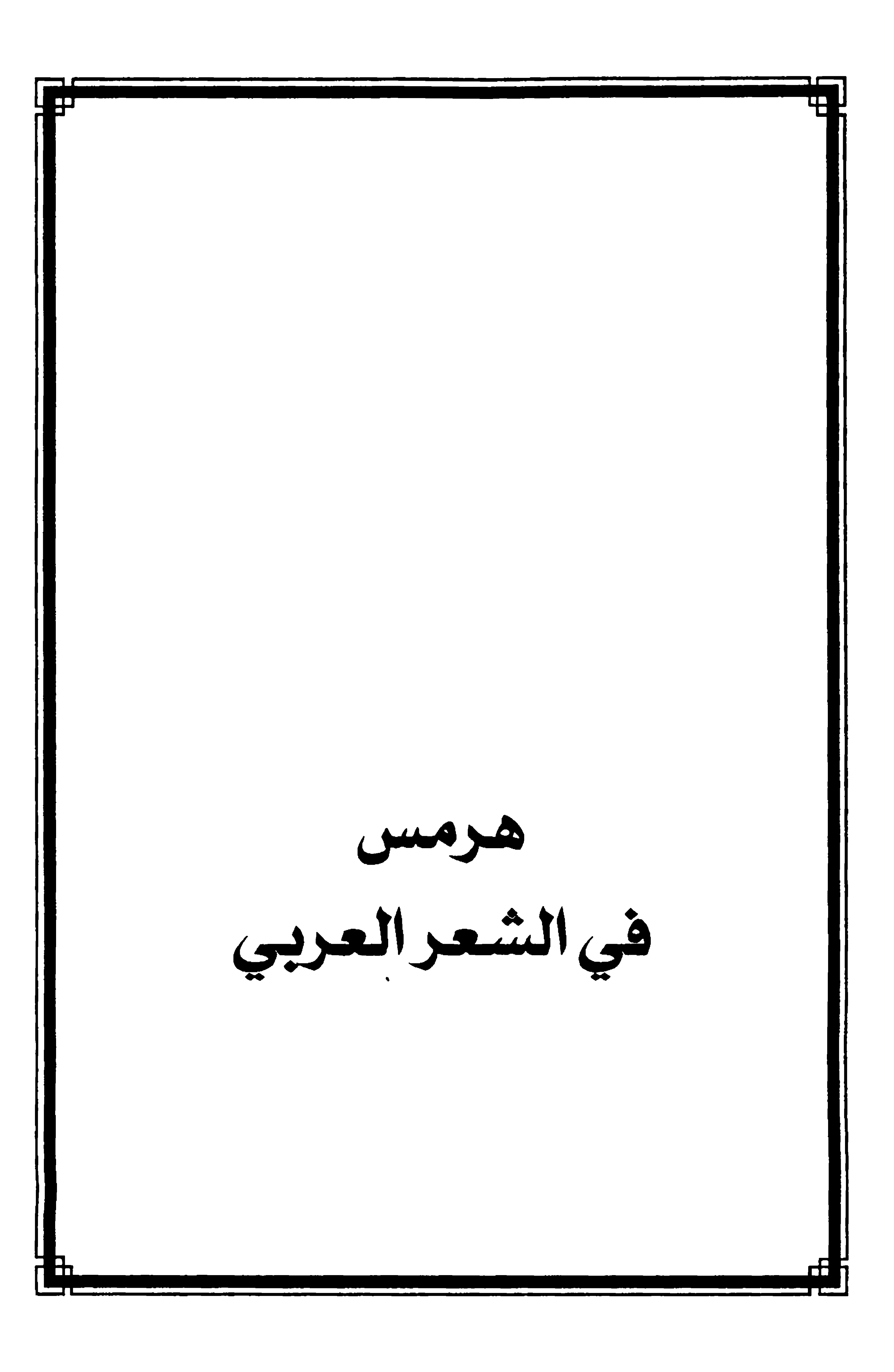
وفي ملاحظة ذات طابع سجالي على التحليل الإبستمولوجي الذي أجراه الجابري على التيار الهرمسي في الثقافة العربية وتسميته بالعقل المستقيل؛ لاحظ المفكر المصري محمود أمين العالم: "أن التحليل الإبستمولوجي بلاعقلانية الفكر الهرمسي والفيثاغوري عامةً لا يمكن أن يفسّر الدور الكبير الذي أداه هذا العقل في العلوم الرياضية والكيميائية"[1].

على أي حال فإن الهرمسية والفكر الهرمسي كان أحد التيارات الفكرية الفاعلة في تاريخ الثقافة العربية والتي لا يمكن إنكار إسهاماتها في إثراء وتعميق حركة العقل العربي في المجالات المعرفية المختلفة وفي تراكم الخبرات الحضارية للمجتمع العربي في أنظمته الاجتماعية والسياسية أيضًا؛ مما شكّل تراثًا معرفيًا لايمكن إغفاله على الرغم من تعارضه مع التيارات الفكرية السائدة.

بقي الآن أن نتوقف عند صورة هرمس في الشعر العربي...

---

(١) محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية: ١٥٣.



هرمس
في الشعر العربي

ورد اسم هرمس في الشعر العربي لأول مرة في القرن الثاني الهجري عند "بشار بن برد" (ت ١٦٧ هـ = ٧٨٤م) الشاعر البصري ذي الأصول الفارسية، وليس هذا مستغرَبًا، فشخصية هرمس - كما رأينا - كانت معروفة على نطاق واسع في مصر والهلال الخصيب وإيران، ثم عرفها اليونان بعد ذلك. فحضارة اليونان "لم تقم إلاّ بعد أن اتصلت بالساميين في بابل وأشور، بل كذلك بالمصريين الذين كانوا قد توصلوا إلى صنوف رفيعة من العلم والفن"(١).

وظل اسم "هرمس" يتردد في الشعر العربي رمزًا للتفوّق العلمي والمعرفي، ودالاً على الأجرام السماوية والكائنات العلوية ذات التأثير النافذ في حياة البشر ومصائرهم؛ مما يؤكد أن الشعراء العرب لم يخرجوا على المفاهيم الأساسية التي تبلورت في الثقافة العربية عن شخصية هرمس.

وقد ورد اسم هرمس في صيغ مختلفة؛ فهو: "هرمس"، و"هرماس"، و"هرميس". وبصيغة الجمع: "هرامس"، و"هرامسة".

---

(١) أحمد كمال زكي: الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري – دار الفكر بدمشق – الطبعة الأولى ١٩٦١م: ١٢٠.

وأحيانًا يأتي مقرونًا بشخصيات تاريخية أو دينية أخرى؛ فبشّار يقرن بهرمس لقمان. ولسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ = ١٣٧٤م) يقرن به شخصيات أخرى هي: لقمان، والأحنف، وقس بن ساعدة. وصفي الدين الحلّي (ت ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩م) يقرن به الرئيس ابن سينا، ونَصِير الدين الطوسي، والشيرازي. ويقرن الباجي المسعودي (ت١٢٩٧ هـ = ١٨٨٠م) به بقراط الطبيب اليوناني المشهور.

أما ابن الرومي (ت ٢٨٣ هـ = ٨٩٦م) وأبو العلاء (ت ٤٤٩ هـ = ١٠٥٦م) فهما أعمق فكرًا وأغزر ثقافةً؛ لذلك يرد اسم "هرمس" عندهما مرةً بمدلوله الشائع، ومرة أخرى دالاًّ على مسائل في الفلك وعلم التنجيم. وأبو الحسن الششتري (ت ٦٦٨ هـ = ١٢٦٨م) في نصه الصوفي يشير إلى تعدد الهرامس؛ فهناك هرمس الأول، والثاني، والثالث.

وكان البارودي (ت ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤م) آخر شاعر عربي ظهرت في شعره صورة هرمس كما جاءت في الثقافة العربية الإسلامية. ومن عجب أن تلميذَيْ البارودي - شوقي وحافظ - لم يذكرا هرمس في شعرهما على الرغم من كثرة ما كتبا من قصائد في تمجيد الحضارة المصرية القديمة والحضارة العربية الإسلامية.

وربما يرجع السبب في ذلك إلى اختلاف التكوين الثقافي للشاعرين مع انتشار الصورة الجديدة للحضارة الفرعونية في كتابات المؤرخين الغربيين بعد فك رموز الكتابة المصرية المدوّن بها التاريخ المصري القديم على جدران المعابد والمقابر والتماثيل والمسلات الفرعونية. فقد استَبْدَلت ثقافة العصر الحديث شخصية "تحوت" - وفي صيغته الأخرى: "توت" ـ باسم "هرمس" الذي كان يشير إلى نفس دلالته في العصور الوسطى.

وفيما يلي نورد النصوص التي ورد فيها اسم "هرمس"، و"إدريس". وقد رجعت في البحث عن هذه النصوص وجمعها، إلى الموسوعة الشعرية التي أصدرها المجمع الثقافي في أبو ظبي، في الإمارات العربية المتحدة، على قرص مدمج (CD)، إصدار ٢٠٠١م.

أولاً: (هرمس):

(١) بشار بن برد (ت ١٦٧ هـ = ٧٨٤م):

- له قطعة من البسيط في أربعة أبيات، يقول فيها:

قومي اصبحينا فما صيغ الفتى حجرا   لكن رهينة أجداث وأرماس

قُومِي اصْبحِينَا فإِنَّ الدَّهْرَ ذُو غِيَرٍ   أَفْنَى لُقَيْمًا وَأَفْنَى آلَ هِرْمَاسِ

***

(٢) ابن الرومي (ت ٢٨٣ هـ = ٨٩٦م):

ـ له أرجوزة، في ٤٧ بيتًا، مطلعها:

لهوت عن وصف الطلول الدارسه   بروضة عذراء غير عانسه

يقول فيها:

أَكْرَمُ مِنْ نَجْمِ السَّمَاءِ السَّادِسَهْ   أَذْكَى حِجًا مِنْ هِرْمِسِ الهَرَامِسَهْ

ـ وله قصيدة من الخفيف في ٨٨ بيتًا، مطلعها:

راع قلبي مشيب رأس خليس   راع جهلي والكيس بالتكييس

يقول فيها:

غلبت لكنة النصارى على فيـ   ـه فاعيت علاج بقراطيس

ومن اختاره الأمير مدحنا   ه وكان السعيد غير النحيس

ومـــن ازورَّ عنـــه يومـــا هجونـــا ه وكان النحيس عـين النحـيس

وثنـــى بابنـــه الـــسفيه المعنـــى بأســـــاطير أرســـطاطاليس

وَالـــذِي لَمْ يُـــصِـغْ بِأُذْنَيْـــهِ إِلاّ نَحْـــوَ ذُوثُورِيُـوسُ أَوْ وَالِيــسِ

عَاقِـــدًا طَرْفَـــهُ بِبُهْـــرَامَ أَوْ كَيْــ ـوَانَ أَوْ هِـرْمِسٍ أَوْ البِرْجِيسِ

أَوْ بِـشَمْسِ النَّهَـارِ وَالبَـدْرِ وَالزُّهْــ ـرَةِ عِنْدَ التَّثْلِيثِ وَالتَّسْدِيسِ

ـ وله قصيدة من السريع في ٩٣ بيتًا، مطلعها:

مـــا رشـــا الإنـــس بمـــستأنس الى بيـــاض الـــشعر المخلـــس

يقول فيها:

بـــدر ســـماء وســـنا بـــاهر لا يمحـــق الله ولا يطمـــس

أَسْـــعَدُ بِـــالحِلْمِ مِـــنَ المُـــشْتَرِي وَبِالحِجَى وَالعِلْمِ مِنْ هِرْمِسِ

إِذَا صَـــبَتْ زُهْرَتُـــهُ صَـــبْوَةً قَـالَ لَهَـا هِرْمِـسُهُ هَنْدِسِ

وإِنْ عَـــدَا هِرْمِـــسُهُ حَـــدَّهُ قَالَـتْ لَـهُ زُهْرَتُـهُ نَفِّـسِ

***

(٣) أبو العلاء المعري (ت ٤٤٩ هـ = ١٠٥٦م):

ـ له قصيدة من اللزوميات في ١٣ بيتًا من الخفيف، يقول فيها:

أتـــضحى بـــالهم أو أتمـــسى وتقـضى مـن الخطـوب التماسي

مفنيـــا بـــين ليلتـــين زمـــاني ليلـة طلقـة وأخـرى عـماس

جَهِلَتْ هِرْمِسَ الغُيُومُ وَمَا تَنْـ ـجُمُ إلاَّ عَنْ جِرْيَةِ الهِرْمَاسِ

زعموا أنني سأرجع شرخا كيف لي كيف لي وذاك التماسي

وأزُور الجنان أحبُرُ فيها بعد طول الهمود في الأرماس

- وله لزومية أخرى من الطويل في ١٧ بيتًا، يقول فيها:

نراقب ضوء الفجر والليل دامس وما يستر الإنسانَ إلا الروامس

تنمسَ منا بالديانة معشر وقد بطلت عند اللبيب النوامس

فكيف ترى المنهاج والليل مقمر ولم تره واليوم أزهر شامس

وتحملنا الأيام حمل عوائم بنا في خضم كلنا فيه قامس

فهن لأهل اليسر نوق أذلة وهن لأهل العسر خيل شوامس

ودنياك دار من يحل فناءها فقد غمسته في الشرور القوامس

ويجمعنا من صنعة الرب أربع ومن فوقها والملك لله خامس

وإنا رأينا الملك يخلق ثوبه وتخبرنا عنه الديار الطوامس

إذَا دَخَلَ الهِرْمَاسُ جِلَّقَ وَالِيًا فَمَا كَذَبَتْ فِيمَا تَقُولُ الهَرَامِسُ

***

(٤) ابن الحداد الأندلسي (ت ٤٨٠ هـ = ١٠٨٧م):

- له قصيدة من الكامل في ٦١ بيتًا، مطلعها:

عج بالحمى حيث الغياض الغين فعسى تعن لنا مهاه العين

يقول فيها:

تتعاقب الأعصار فيه وجوه ... أبدا به آذار أو تشرين

وَكَأَنَّ هِرْمِسَ بَثَّ حِكْمَتَهُ بِهِ ... وَأَدَارَ فِيهِ الفِكْرَ أَفْلاَطُونُ

وكأن راسم خطه إقليدس ... فموائل الأشكال فيه فنون

***

(٥) الطغرائي (ت ٥١٣ هـ = ١١١٩م):

ـ له قصيدة من الكامل في ثمانية أبيات يقول فيها:

أما العلوم فقد ظفرت ببغيتي ... منها فما أحتاج أن أتعلما

وعرفت أسرار الخليقة كلها ... علما أنار لي البهيم المظلما

وَوَرِثْتُ هِرْمِسَ سِرَّ حِكْمَتِهِ الذِي ... مَا زَالَ ظَنًّا فِي الغُيُوبِ مُرَجَّمَا

وملكت مفتاح الكنوز بفطنة ... كشفت لي السر الخفي المبهما

لولا التقية كنت أظهر معجزا ... من حكمتي يشفي القلوب من العمى

***

(٦) أبوالحسن الششتري (ت ٦٦٨ هـ = ١٢٦٨م):

ـ له قصيدة من الطويل في ٦٩ بيتًا، يقول فيها:

أمامك هول فاستمع لوصيتي ... عقال من العقل الذي منه قد تبنا

أباد الورى بالمشكلات وقبلهم | بأوهامه قد أهلك الجن والبنا
وعدد شيئا لم يكن غير واحد | بألفاظ أسماء بها شتت المعنى
فنحن كدود القز يحصرنا الذي | صنعنا بدفع الحصر سجنا لنا منا
فكم واقف أردى وكم سائر هدى | وكم حكمة أبدى وكم مملق أغنى
وَتَيَّمَ أَلْبَابَ الهَرَامِسِ كُلِّهِمْ | وَحَسْبُكَ مِنْ سُقْرَاطَ أَسْكَنَهُ الدَّنَّا
وجرد أمثال العوالم كلها | وأبدأ أفلاطون في أمثل الحسنى
وهام أرسطو حتى مشى من هيامه | وبث الذي ألقى إليه وما ضنا
وكان لذي القرنين عونا على الذي | تبدى له وهو الذي طلب العينا
ويبحث عن أسباب ما قد سمعتم | وبالبحث غطى العين إذ رده غينا
وذوق للحلاج طعم اتحاده | فقال أنا من لا يحيط به معنى
فقيل له ارجع عن مقالك قال لا | شربت مداما كل من ذاقها غنى
وأطلق للشبلي بالوحدة التي | أشار بها لما محا عنده الكونا
وكان لذات النفري موهما | يخاطب بالتوحيد صيره خدنا
وكان خطيبا بين ذاتين من يكن | فقيرا ير البحر الذي فيه قد غصنا
وأصبح فيه السهروردي حائرا | يصيح فما يلقى الوجود له أُذنا
ولابن قسي خلع نعل وجوده | وليس إحاطات من الحجر قد تبنا
أقام على ساق المسرة نجلها | لما رمز الأسرار واستمطر المزنا

ولاح سني برق من الغرب للنهى | لنجل ابن سيناء الذي ظن ما ظنا
وقد خلد الطوسي ما قد ذكرته | ولكنه نحو التصرف قد حنا
ولابن طفيل وابن رشد تيقظ | رسالة يقظان أقضى فتحه الحينا
كسا لشعيب ثوب جمع لذاته | يجر على حساده الذيل والردنا
وعنه طوى الطائي بسط كيانه | به سكرة الخلاع إذ أذهب الوهنا
تسمى بروح الروح جهرا فلم يبل | ولم ير ندا في المقام ولا خدنا
به عمر بن الفارض الناظم الذي | تجرد للأسفار قد سهل الحزنا
كشفنا غطاء عن تداخل سرها | فأصبح ظهرا ما رأيتم له بطنا
هدانا لدين الحق ما قد تولهت | لعزته ألبابنا وله هدنا

***

(٧) صفي الدين الحلي (ت ٧٥٠ هـ = ١٣٤٩م):

ـ له قصيدة من الكامل في ٢٥ بيتًا، يقول فيها:

إني لفضلك بالمديح أجازي | شتان بين حقيقة ومجاز
رضت العلوم فاصبحت إذ أصبحت | وجيادها تمشي بلا مهماز
وَسَمَوْتَ هِرْمِسَ وَالرَّئِيسَ وَثَابِتًا | فَضْلاً علَى الطُّوسِيِّ وَالشِّيرَازِي
ونشرت في أقصى البلاد فضائلا | غرا رزأت بهن ذكر الرازي

***



(٨) لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ = ١٣٧٤م):

- له قصيدة في ٢٠ بيتًا من البحر الطويل، يقول فيها:

وأزهر فضفاض الرداء إذا احتبى ... بسدة ناد أو قرارة مجلس

يريك حجى لقمان في حلم أحنف ... ومنطق قس تحت حكمة هرمس

فإن شئت في بحر الندى منه فاغترف ... وإن شئت في نار الهدى منه فاقبس

***

(٩) الباجي المسعودي (ت ١٢٩٧ هـ = ١٨٨٠م):

- له قصيدة في ٣٥ بيتًا من المتقارب، مطلعها:

عليل غريب ولا مونس ... يحن لرؤياك يا تونس

ويقول فيها:

سألتك يا رب بالمصطفى ... نبي الهدى الطيب المغرس

وبالآل والصحب والتابعين ... ومن في ثرى بدر قد عرسوا

وبالأولياء الألى ليلهم ... بنور الهدى نير مشمس

تدارك عُبَيْدَكَ وانظر له ... بعين الرضى فبها يحرس

وَعَجِّلْ شِفَاهُ فَأَنتَ القديرُ ... إذَا حَارَ بُقْرَاطُ أَوْ هِرْمِسُ

***

(١٠) محمود سامي البارودي (ت ١٣٢٢ هـ = ١٩٠٤م):

ـ له قصيدة في ٣٤ بيتًا من الطويل، يقول فيها:

سَلِ الجِيزَةَ الفَيْحَاءَ عَنْ هَرَمَيْ مِصْرِ   لَعَلَّكَ تَدْرِي غَيْبَ مَا لَمْ تَكُنْ تَدْرِي

بِنَاءَانِ رَدَّا صَوْلَةَ الدهْرِ عَنْهُمَا   وَمِنْ عَجَبٍ أنْ يَغْلِبَا صَوْلَةَ الدَّهْرِ

أَقَامَا عَلَى رَغْمِ الخُطوبِ لِيَشْهدَا   لِبَانِيهِمَا بَيْنَ البَرِيَّةِ بِالفَخْرِ

فَكَمْ أُمَمٍ فِي الدَّهْرِ بَادَتْ وَأَعْصُرٍ   خَلَتْ وَهُمَا أُعْجُوبَةُ العَيْنِ وَالفِكْرِ

تَلُوحُ لآثَارِ العُقُولِ عَلَيْهِمَا   أَسَاطِيرُ لاَ تَنْفَكُّ تُتْلَى إلَى الحَشْرِ

رُمُوزٌ لَوِ اسْتَطْلَعْتَ مَكْنُونَ سِرِّهَا   لأَبصَرْتَ مَجْمُوعَ الخَلائقِ فِي سَطْرِ

فَمَا مِنْ بِنَاءٍ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ   يُدَانِيهِمَا عِنْدَ التأَمُّلِ وَالخُبْرِ

وَبَيْنَهُمَا بَلْهِيبُ فِي زِيِّ رَابِضٍ   أَكَبَّ على الكَفَّيْنِ مِنْهُ إلَى الصَّدْرِ

يُقَلِّبُ نَحْوَ الشَّرْقِ نَظْرَةَ وَامِقٍ   كَأَنَّ لَهُ شَوْقًا إلَى مَطْلَعِ الفَجْرِ

مَصَانِعُ فِيهَا لِلْعُلومِ غَوَامِضٌ   تَدُلُّ عَلَى أَنَّ ابنَ آدَمَ ذُو قَدْرِ

فَثَمَّ عُلومٌ لَمْ تُفَتَّقْ كِمَامُهَا   وَثَمَّ رُمُوزٌ وَحْيُهَا غَامِضُ السِّرِّ

أَلاَ قَبَّحَ اللهُ الجهالَةَ إِنَّهَا   عَدُوَّةُ مَا شَادَتْهُ فِينَا يَدُ الفِكْرِ

فَلَوْ رَدَّتِ الأيامُ مُهْجَةَ هِرْمِسٍ   لأَعْوَلَ مِنْ حُزْنٍ علَى نُوَبِ الدهْرِ

ـ وله قصيدة في ٢٤ بيتًا من الخفيف، يقول فيها:

أي شيء يبقى على الحدثان   والمنايا خصيمة الحيوان

قـد بلونـا كيـد الزمـان ولكـن شـغلتنا عنـه ضروب الأمـاني

فلـك لا يـزال يجـري عـلى النـا س بـضدين مـن عـلا وهـوان

لـيس يبقـي عـلى وليـد ولا كهـ ـل ولا سـوقة ولا سـلطان

كيف يرجـو الإنـسان فيـه خلـودا بعـد مـا قـد مضى أبـو الإنـسان

أيـن مـن كـان قبلنـا منـذ دارت كـرة الأرض وهـي ذات دخـان

فَتَرَسَّـمْ مَعـالِمَ الأرضِ وَاسْـأَلْ فَعَـسَى أنْ يُجِيبَـكَ الهَرَمـانِ

أَثَـرٌ دَلَّ صُـنْعُهُ أنَّ هِرْمِيـ ـسَ بنَـاهُ مِـنْ أَبْـدَعِ البُنْيَـانِ

خـافَ ضَـيْعَ العلـومِ حـينَ أتتـه بيِّنَـاتٌ دلَّـتْ عـلَى الطُّوفـانِ

فبنـاه مـن الـصخور اللـواتي جلبتهـا القيـون مـن أسـوان

طبقـات في جوفهـا حجـرات ضـمنت كـل حكمـة وبيـان

بقيـت بعـد صـانعيها فكانـت أثـرا ناطقـا بغـير لـسان

سوف تبلى من بعـد حـين ويمحـى ذكر هرميس مـن سجل الزمـان

إنـما هـذه الحيـاة غـرور تنقـضي بالـشقاء والحرمـان

***

ثانيًا: إدريس النبي عليه السلام:

(١) علي بن الجهم (ت ٢٤٩ هـ = ٨٦١م):

ـ له أرجوزة في ٣٢٨ بيتًا، يقول في مطلعها:

الحمـــد لله المعيـــد المبـــدي — حمـدا كثيرا وهـو أهـل الحمـد

وفيها يذكر النبي إدريس عليه السلام في الأبيات التالية:

فلـم يـزل شـيث عـلى الإيـمان — معتـصما بطاعـة الرحمـان

يحفـظ مـا أوصى بـه أبـوه — لا يتخطـاه ولا يعـدوه

حتـى إذا مـا حـضرت وفاتـه — وخـاف أن يفجـاه ميقاتـه

أوصى أنوشـا وأنـوش كهـل — بمثـل مـا أوصى أبـوه قبـل

فلـم يـزل أنـوش يقفـو أثـره — لا يتعـدى جاهـدا مـا أمـره

ثـم تـلاه ابنـه قينـان — وقولـه وفعلـه الإيـمان

ثـم تـلا قبنـان مهلائيـل — فسن مـا سنت لـه الكهـول

ثـم استقل بـالأمور يَـرْدُ — أخنـوخُ وَهْـوَ في العلـوم فَـرْدُ

وكـان في زمانـه يوئيـل — الخـالع المـضلل الـضليل

وكـان مـن نـسل الغـوي قـاين — وغـير بـدع خـاين مـن خـاين

فـاغتر مـن أولاد شـيث عالمـا — حتى عـصوا وانتهكـوا المحارمـا

وخـالفوا وصـية الآبـاء — وافتتنـوا بـاللهو والنـساء

ولم يـزل يَـاردُ يـألُو قَوْمَـهُ — نُـصْحًا وكـانوا يُكْثِـرُونَ لَوْمَـهُ

حتـى إذا مـات اسـتقلَّ بَعـدَهُ — إدريـسُ بـالأمرِ فـأوْرَى زَنْـدَهُ

وَهْـوَ خَنُـوخُ بِالبيـانِ أعجَـما — صـلَّى عليـهِ ربُّنـا وسـلَّما

أوّلُ مبعـــــوثٍ إلَى العِبَـــــادِ وآمِـــرٍ بـــالخيرِ والرَّشـــادِ

وأوَّلُ النـــاسِ قَـــرَا وَكَتَبَـــا وَعَلَّـــمَ الحِـــسَابَ لَمَّـــا حَـــسَبَا

فلـــم يُطِعْـــهُ أحَـــدٌ مِـــنْ أهلِـــهِ وَاختلطُـــوا بِقَـــايِنٍ وَنَـــسْلِهِ

فرفَـــعَ اللهُ إليْـــهِ عَبْـــدَهُ مِـنْ بَعْـدِ مَـا اخْتَـارَ المُقَـامَ عِنْـدَهُ

وَصَـــارَ مَتُّوشَـــالِحٌ مُـــسْتَخْلَفَا مِنْ بَعْدِ إِدْرِيسَ النَّبِيِّ المُصْطَفَى

***

(٢) محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠م):

ـ له أرجوزة في ٢٠ بيتًا، يقول في مطلعها:

واحربـــا مـــن كبـــدي واحربـــا واطربـــا مـــن خلـــدي واطربـــا

يقول فيها:

إن طلعـــت كانـــت لعينـــي عجبـــا أو غربـــت كانـــت لحينـــي سببا

مـــذ عقـــد الحـــسن عـــلى مفرقهـــا تاجـــا مـــن التـــبر عـــشقت الـــذهبا

لـــو أن إبلـــيس رأى مـــن آدم نـــور محياهـــا عليـــه مـــا أبـــى

لَـــوْ أَنَّ إِدْرِيـــسَ رَأَى مَـــا رَقَـــمَ الـــ ـــحُسْنُ بِخَـــدَّيْهَا إِذًا مَـــا كَتَبَـــا

ونلاحظ أن علي بن الجهم في أرجوزته الكبرى يوحّد بين شخصيتي "إدريس"، و"أخنوخ" (الذي يورده أيضًا حسب النطق العبري: "حنوخ")، ويجعلهما شخصًا واحدًا، على ما جرى عليه المؤرخون العرب.

خاتمة

رأينا في هذا البحث – ومن خلال المحاور التي عالجت موضوع هرمس والهرمسية في المصادر العربية – كيف أن الثقافة العربية استطاعت أن تتقبل العناصر الثقافية الوافدة وتهضمها، دون ارتباك أو رفض، وكيف تحولت هذه العناصر من طبيعتها الأولى كأجسام غريبة إلى مكونات داخلة في البنية التركيبية للثقافة العربية ومن ثَمَّ إلى عناصر قوة وحيوية لها. ولم يكن ذلك ممكنًا لو لم تتوفر حرية البحث العلمي والتمويل المادي للمشتغلين بالفكر في المجتمع العربي، في إطار من المفاهيم الخاصة التي ترسم حركته وتحدد توجهه. وهي آلية تغذي الأهداف الاستراتيجية للمجتمع وتحقق له قدرًا من الأصالة. والأصالة تعني ـ في نهاية الأمر ـ القدرة على العطاء والخلق والإبداع.

وفي العصر الحديث استؤنف البحث في هذا التراث العربي بمكوناته المتعددة، من قِبَل المشتغلين بالفلسفة من الباحثين العرب، في عملية مراجعة ومساءلة شاملة.

ويمكن استخلاص نتيجة عامة مؤداها أن لهذا التراث المعرفي وجهين: أحدهما سلبي والآخر إيجابي. وليس علينا ـ

بعد الفهم والاستيعاب - سوى الاختيار بوعي تمليه علينا اللحظة الحضارية الراهنة، ليتحول هذا التراث بين أيدينا إلى عامل من عوامل النهضة لا عنصر من عناصر التخلف والنكوص.

المصادر والمراجع

١- أحمد فؤاد الأهواني: الفلسفة الإسلامية - دار القلم - القاهرة ١٩٦٢.

٢- أحمد كمال زكي: الحياة الأدبية في البصرة إلى نهاية القرن الثاني الهجري - دار الفكر بدمشق - الطبعة الأولى ١٩٦١م.

٣- ابن أبي أُصَيْبِعَة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء - شرح وتحقيق نزار رضا - منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٥م.

٤- أبوالصلت أمية بن عبد العزيز الداني: الرسالة المصرية - نوادر المخطوطات، المجموعة الأولى - تحقيق عبدالسلام هارون - الطبعة الثانية - شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ١٣٩٢هـ= ١٩٧٢م.

٥- جبور عبدالنور، وسهيل إدريس: المنهل - دار الآداب، دار العلم للملايين - ط٢ - بيروت ١٩٧٢.

٦- جورج سارتون: تاريخ العلم - دار المعارف - القاهرة ١٩٩١.

٧- جورج شحاته قنواتي: "الفلسفة وعلم الكلام والتصوف"، ضمن كتاب: تراث الإسلام – الجزء الثاني – الطبعة الثانية – عالم المعرفة ٢٣٤- الكويت ١٩٩٨

٨- دي بور: تاريخ الفلسفة في الإسلام، نقله إلى العربية: محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٣٨.

٩- سليم حسن: الأدب المصري القديم أو أدب الفراعنة - مطبوعات كتاب اليوم - القاهرة ١٩٩٠.

١٠- شهاب الدين السهروردي: مجموعة مصنفات شيخ إشراق - بتصحيح ومقدمة هنري كربين - الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة ٢٠٠٠.

١١- الشهرستاني: كتاب الملل والنحل - ليبزج ١٩٢٨.

١٢- صاعد الأندلسي: طبقات الأمم - تحقيق حسين مؤنس - دار المعارف - القاهرة ١٩٩٨.

١٣- عباس محمود العقاد: إبراهيم أبو الأنبياء - نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة ١٩٩٣.

١٤- عبد الرحمن بدوي: الأفلاطونية المحدثة عند العرب - وكالة المطبوعات - الكويت ١٩٧٧.

١٥- عبد الرحمن بدوي: الإنسانية والوجودية في الفكر العربي - وكالة المطبوعات، الكويت - دار القلم، بيروت ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٢.

١٦- عبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية الأخرى - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية ١٩٨٩.

١٧- علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام - الجزء الأول - الطبعة التاسعة - دار المعارف - القاهرة ١٩٩٥.

١٨- علي شود كيفيتش: الولاية والنبوة عند الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي - ترجمه من الفرنسية وقدم له د. أحمد الطيب - دار الشروق - القاهرة ٢٠٠٤.

١٩- فيليب حتي: تاريخ العرب (مطول) - دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع - بيروت ١٩٥٨.

٢٠- القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء - مكتبة المتنبي - القاهرة، د.ت.

٢١- الكتاب المقدس

٢٢- كرلو نَلِّينو: علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ـ مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة، د.ت، مصورة عن طبعة روما ١٩١٥.

٢٣- مارتن برنال: أثينة السوداء، الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية، الجزء الأول: تلفيق بلاد الإغريق ١٧٨٥-١٩٨٥، ترجمة: لطفي عبد الوهاب، وآخرين، تحرير ومراجعة: أحمد عتمان - المشروع القومي للترجمة ١٦، المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ١٩٩٧.

٢٤- أبو الوفاء المُبَشِّر بن فاتك: مختار الحكم ومحاسن الكلم - حققه وقدم له وعلق عليه عبدالرحمن بدوي - منشورات المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد - مطبعة المعهد المصري للدراسات الإسلامية - الطبعة الأولى - مدريد ١٩٥٨.

٢٥- محمد عابد الجابري: نقد العقل العربي (١)، تكوين العقل العربي - دار الطليعة - بيروت ١٩٨٤.

٢٦- محمود أمين العالم: مفاهيم وقضايا إشكالية - دارالثقافة الجديدة - القاهرة ١٩٨٩.

٣٧- مرتضى الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس - بنغازي - ليبيا.

٢٨- ابن منظور: لسان العرب - دار صادر - بيروت.

٢٩- منير البعلبكي: المورد - دار العلم للملايين - بيروت ١٩٨٦.

٣٠- الموسوعة الشعرية - المجمع الثقافي - أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، إصدار ٢٠٠١م.

٣١- ابن النديم: الفهرست- دار الكتب العلمية- بيروت ١٩٩٦.

32-The Encyclopedia of Religion volume 6, New York, 1987.

33-Encyclopédie de L'islam, Tome III, Paris, 1971.

المحتويات



رقم الإيداع: ٤٠٤١/ ٢٠٠٧

الترقيم الدولي: 977-6156-57-6